التطور الحضاري على مر العصور

ا.د.حيدر عبدالرزاق كمونة

1- المقدمة

لا يمكن ان يعتبر التحضر ظاهرة حديثة فقد اهتدى الانسان الى العيش والسكنى في المدن منذ الاف السنين . وتجدر الاشارة هنا الى ان اقدم القرى الكبيرة والمدن قد ظهر بعد التبلور الحضاري اي ان ظهور المدن كان احد الظواهر الحضارية.

ومما لاشك فيه ان المدن بعد ظهورها قد ساهمت في التطوير الحضاري مساهمة فعالة .وقد حدث التقدم الحضاري عندما اخذ الانسان يمارس الزراعة واستعمل الادوات المعدنية واستحدث العجلات واهتدى الى الكتابة وذلك في العصر الحجري الجديد. فقد حدث في ذلك العصركثيرا من التحولات في الميدان الحياة الاقتصادية والحضارية والاجتماعية . ففي الناحية الاقتصادية والحضارية يتمثل هذا التحول باعتماد المجتمع المتزايد على الزراعة بدلا من الصيد والمجتمع وتشير الدلائل التاريخية الا ان هذا التحول قد حدث في الهلال الخصب وخاصة في منطقة التلال والهضاب التي تطوق هذا الاقليم حيث ظهرت اولى اشكال تجمعات السكان التي تطورت اخيرا الى القرى ومن ثم المدن.والهلال الخصب هو اقليم الذي يمتد على شكل قوس من الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط الى راس الخليج العربي ويشمل قسما من الاردن والفلسطين وسوريا وتركيا ووادى الدجلة والفرات.

ان اغلب تكنيكات التخطيط الحضري تعتمد على استنتاجات والاتجاهات القديمة من المصادر التاريخية ،يتبعة بعد ذلك تفهم للتاريخ الغني للتخطيط الحضري وهو مهم وضروري جدا لمعظم الطلبة .وحتى للذين يصرون انه يجب علينا تغير الاتجاهات القديمة يصفون ان استعمال التحليل التاريخي كقاعدة تنبوئية هو تقرب معقول وموثوق به .وبالاضافة الى ذلك كون التاريخ اكثر فتنة وسحر .وهو يعكس تطور البشرية من سكنة الكهوف والبدويين الى مجتمع متحضر .وهو تاريخ تقدم المدن .

2- **العالم القديم**

حوالى سنة 4000 ق.م في المنطقة المسماة بالهلال الخصيب (fertile Crescent) حيث بدأت الحضارة المدنية (Civilization) والمهش هو التطور مدن الممالك من قبل السومرين والاشوريين وهؤلاء الملوك المحاربين انشؤا مدنا ،التي كانت بمثابة قلاع ،واسواق للمنتوجات الزراعية للمناطق المحيطة .وكان هناك ايضا صناعات خفيف وحرف يدوية في هذه المدن مشابهة لما هو موجود في العصؤ البرونزي.

وفي هذه المدن كان عدد النفوس يتراوح من 3000 الى 5000 شخص .

والمدن التي كان يبلغ ارتفاعها ذلك الوقت 100 قدم كانت تسمى (زكورة) (ziguates) التي كانت معابد ومراصد في ان واحد .والتخطيط الاساسي استعمل فيه الجدران الكبيرة والفخمة محيطة بالزقورة ، والقصر والبنايات الاخرى وكانت هناك ديكورات كثيرة من الجدران الواطئة مع رسومات على الجص ونقشات ضئيلة البروز (Bas-Relier) .

واحدة من احدى هذه المدن االقديمة هي مدينة بابل التي انشأت مثل باقي المدن السومرية ،ووصلت عظمتها الاسطورية عندما اعاد (نبوخذ نصر) بنائها خلال القرن السادسٌ .م ، حيث ان المدينة الجديدة تبع تخطيطيها شارعا نظاميا ،وشطرت الى نصفين بنهر الفرات .حيث ابقوا المعبد والبرج في المركز المدينة والجنائن المعلقة كانت واقعة على النهر في شمال الجدار .وهي عاصمة الامبراطورية البابلية وبلغ عدد سكانها 10000 شخص وكانت اكبر مدينة في ذلك الوقت [*].

ولقد توصل الباحث الاثري (روبرت بريد وود) (Robert Braidwood) الى ان اقدم قريتين زراعيتين وهما جرموا في العراق وتب سراب في ايران قد ظهرتا على سفوح الجبال زاجراس وقد كانتا مسكونتين بين 7000 و 6500 ق.م ، لقد كانت القرية الاخيرة تسكن بصورة فصلية لهما الاولى فقد كانت مستوطنة بصورة دائمة وقد قدر عدد دورها بحوالي 24 دارا وكانت غالبا ماترسم ويعاد بنأؤها وبلغ سكانها بحدود 150 نسمة.كما اكتشفت حقولها الزراعية التي كانت مزروعة بالحنطة والشعير وعثر ايضا على اثار تدل على ان سكان هذه القرية قد دجنوا الاغنام والماعز[**] .

ان نشؤ القرى والمدن القديمة في بلاد الرافدين لم يكن ظاهرة فجائية بل سبقتة رحلتان اتصفت الاولى بتركيز جهود الانسان لاستغلال امكانات وموارد البيئة بل سبقتة مرحلتان اتصفت الاولى بتركيز جهود الانسان لاستغلال امكانات وموارد البيئة في محاولتة للبقاء واختراع

[*]1) Introduction to Urban Planning –Page 4-5.

[**]8) جغرافية المدن –ص 5

الادوات والتواصل الى بعض الفنون واتساع القرية الزراعية في حدود 5500 ق.م فالمرحلة الاولى يغلب عليها التفاعل بين الانسان وبيئتة الطبيعية اما المرحلة الثانية فقد اتصفت بالتركيز على تفاعل الانسان مع بيئتة الاجتماعية اكثر من تفاعلة مع بيئتة الطبيعية ، وفيها ظهرت طلائع المدن الاولى واصبحت دلائل التحضر واضحة في حوالي 4000 م ، اما دويلات المدن القديمة الكبيرة فقد تبلورت في حدود 3000 ق.م و 2500 ق.م على وجه التقريب ، اي في عصر فجر السلالات .وكانت دويلات المدن هذه تتنازع فيما بينها على السلطة السياسية وعلى التي كان يعتمد عليها وجودها الاقتصادي .ولم تتوحد البلاد وتتنتقل من طور الدويلات المتفرقة المتنازعة الى طور حكومة الممالكة الموحدة الا في اواخر عصر فجر السلالات عندما تمكن سرجون الاكدي من القضاء على اخر دويلات المدن ان هذا النمط الحضري القديم الذي ظهر في هذه المنطقة من العالم لايمكن ان يفهم بوضوح الا بالاشارة المفضلة الى ظروف المسبقة التي لايمكن الاعتماد عليها لتقويم القرية والحياة الريفية وتصدير الفائض الى المدينة كما ان التحسينات التي ظهرت في مجال الزراعة وتربية الحيوانات التي انجزتها حضارة العصر الحجري وخاصة زراعة الحبوب الصلبة التي يمكن ان تتنتج بكثرة بدون تلف كبير ، وكانت عاملا اخر في طهور المدينة في القرية .ان هذا النوع الجديد من المنتوج الزراعي معناة ضمان حققة الانسان ضد الجاعات والظروف السيئة المتوقعة وامكانية اعالة اعداد كثيرة من السكان ،وتوفير طاقة بشرية استغلت في فعاليات حديدة خارج الحقل الزراعي .كالادارة ،واالديانة ، والفنون ، وغيرها من الحرف التخصصية .لذلك فليس من قبيل الصدفة ان يتوصل الانسان الى معرفة اسس بعض المخترعات كالمحراث ، والعجلة وفن التعدين مباشرة بعد ذلك .فالقرى الصغيرة المبعثرة التي كانت تحتوي على 10 او 15 بيتا تحولت الى مدن او قرى كبيرة اديرت على خطة وتنظيم جديدين .

يرى ادمز : ان اختلاف انتاجية التربة وتباين توزيعها ومدى قرب الحقول الزراعية او بعدها عن مصادر المياه اروائية ،من العوامل التي ساهمت في خلق مجتمع طبقى وسببت صراعا وخلافات على الحدود نتج عنها تكتلات وتجمعات سكانية بين دول المصالح المشتركة استعداد للهجوم والدفاع عن مصالحها .واخيرا نجد ان تعقد ظروف الحياة في السهول الرسوبية كان عاملا اخر سهل عملية التحضير ونمو المدن القديمة ، فقد كانت هناك حاجة لسلطة تتوسط بين الرعاة والفلاحين وصانع المراب والحارث ،والبائع والمشتري ولاشك ان المدينة تعتبر مكانا منطقيا وضروريا لعمليات الخزن والتزيع والتبادل التجاري في السابق ،كما هي الحالة في مجتمعاتنا الحاضرة والحضارة الخزن والتوزيع والتبادل التجاري في السابق ،كما هي

الحالة في مجتمعاتنا الحاضرة [*].والحضارة العصرية ايضا ازدهرت في هذا الوقت واصبحت مصر موجهة لان تكون مدينة ولكن مدنها كانت صغيرة نسبيا وبنيت هذه المدن مع بناء الاهرام (PYRAMIDS) واوحدة من هذه المدن القديمة هي ، كاهون (KAHUN) التي بينت لاسكان العمال والفنانين المرتبطين ببناء الهرم العظيم ، وكان يعيش في هذه المدينة 20000 شخص تقريبا في نفس الوقت . وكان هناك نظام للشوارع يسمى RECTAGULES SYSTEM نظام مستطيلي الشكل واغلب هذه المدن مثل مدينة الجيزة (GIZA) اصبحت مهجورة بعد ان انتهت عملية بناء الاهرام ولم تكن مدن دائمية ، حيث ان هذا الجتمع اعتبر مدينة الموتى [**] (NECROPOLIS) .ومن البديهي ان الشروط الطبيعية المتمثلة في خصوبة حزام وادي النيل الاوسط والاسفل على امتداد 1000 كيلو متر وعرض يتراوح من 10–20 كيلومتر ، اضافة الى الصفات المناخية هي من العوامل المهمة والاساسية في ظهور المستوطنات في هذا الوادي وتعتبر مدينة بوتو في دلتا النيل ، مدينة ممفيس قرب سقارة ومدينة ميركون بوليس شمال مدينة ادفو من اولى المستوطنات التي نشات في مصر ،بالرغم من كون مدن مصر لم يجرى تشيدها على اساس مخططات معدة مسبقا الا ان البعض منها جاء بمعالم تخطيطية واضحة تتبرز من خلال تنوع الوظائف المسجلة على استعمالات الارض فيها وتقسيمات المدينة الى اجزاء مختلفة وفق التراكيب الاجتماعي للسكان .لو نظرنا الى مجمع الاهرامات في الجيزة عند القاهرة نجد ان الاهرامات الرئسية الثلاثة ذات قاعدة رباعية متدرجة مختلفة لاتفاع وهي بمجموعها تشكل وحدة معمارية متماسكة تعلو على رمال الصحراء في تركيبة هندسية جميلة ، وعند اسفلها تتجمع مقابر الاولاد والاحفاد .ان هذه الوحدة المعمارية المتماسكة توضح كذلك عظمة الاعمال الفنية التي استخدمت في تشييد الاهرمات للفترة مابين 2720–2560 ماقبل التاريخ واستعيض فيها عن تكنلوجيا عالمنا المعاصر بالقوى البشرية الضخمة اثناء عملية الانشاء [***] .

ويذكرنا ممفر (LEWIS MUMFORD) بطريقة اخرى ظهرت بواستطها المدينة من القرية وهي ان بعض القرى بسبب مواضعها المنيعة ، كانت تقدم حماية لسكانها ضد الطامعين.لذلك فانها في اوقات الخطر والازمات جذبت اليها السكان من المناطق الاخرى التي هي اقل امانا وتحصينا. وبهذه الطريقة تحولت بعض القرى المنيعة الى مدن ذات سكان اكثر عددا وتنوعا

[*] 8) جغرافية المدن ص 5

[**] 1) Introduction to Urban planning page 5>

[***] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص 9-10.

لانها حتى بعد زوال الخطر احتفظت بقسم من المهاجرين الذين طلبوا الماوى والعيش الامن وقد ذهب ادمز الى ان ظهور بعض مدن اقليم ديالى كان بهذه الطريقة ايضا .

مما سبق انه من خلال خزن الزائد من المنتوج وفتح القنوات وتنظيم الرى وبناء الطرق والهجرة وغيرها من الفعاليات الحضرية الاخرى قد برزت المدينة وجودها وبالتالي ساعدت على التقليل من سيطرة البيئة على الانسان وحمت المجتمع من المؤثرات الطبيعية القاسية ضده ان هذه الوظائف وغيرها كان من الصعب على جماعة صغيرة الحجم على مستوى القرية ان تنجزها .

لاشك ان الفصل بين طلائع المدن القديمة والقرى الزراعية التي ظهرت في اواخر العهد الحجرى الحديث هو شى شكلي لان التفريق بين الحياة الحضرية والقرية بالشكل الذي نفهمة الان هو من نتاج (الثورة الصناعية) ويحذرنا بعض الباحثين على ان مصطلح الثورة الحضرية (URBAN REVOLUTION) الذي استعملة المؤرخ جايلد في كثير من كتاباته فيه شى من المبالغة ولذلك فمن المناسب ان يفهم منه على انه وصف (لمولد الحضارة) وقد حافظت طلائع المدن القديمة خاصة على علاقتها التقلدية بالزراعة التي نجدها في القرية لذلك فمن المعقول ايضا ان يطلق عليها مصالح (المدن الزراعية) وكان المصدر الرئيس لغذائها يأتي من الارض التي حولها والى ان تقدمت وسائل النقل والمواصلات وتطور نظام السيطرة المركزية ولم تستطيع تلك المستوطنات ان تنمو خارج مناطق تجهيز مياهها وموارد طعامها المحلية وهذا يعنى ان احد ضوابط التحضر كان القرب من مورد مائي دائم وتوفير التربة الخصبة لذا فان ميل المدن للنمو على طول الانهار كان شيئا طبيعيا لاستعمال مياة الانهار للزراعة والنقل ولاغراض اخرى[*] .وخلال الدور اللاحق لعملية التحضر مارس الانسان التعدين واتى التخصيص التكنولوجي وتقدمت وسائل النقل التي سهلت التبادل التجاري والتفاعل بين جميع الاشكال الاستطيان البشرى ومن بينها المدن وقد ادى هذا التطوير الى التقليل من اعتماد المدينة على مواردها المحلية واتساع نفوذها الاقتصادي واجتماعي والسياسي فظهرت نتيجة لذلك .المراكز الحضرية التي يمكن ان يطلق عليها اسم (المدن) وذلك في حدود 4000 الى 3500 ق.م العبيد واور واريدووالوركاء وحمدة نصر ورفاة (شروباك القديمة) وكيش خفاجى ونفر وبابل واشور ونينوى .عند ظهور هذه المدن اصبح من الممكن الاشارة الى بعض المقاييس التي اقترحها الباحث جليلد التي تتعلق بالتفريق بين القرى والمدن القديمة وهي : تقسيم العمل ، حجم السكان ، واستعمال الكتابة

[*] 8) جغرافية المدن ص 7-8.

والاختراعات العلمية ،جمع الضرائب المباني العامة التجارة الخارجية التركيب الطبقى الاجتماعي .

اما الباحث ممفرد ، فيعتقد ان الذي يميز المدينة عن القرية ذلك الوقت شيئان اولهما وجود راكز اجتماعي منظم تتماسك حوله انماط بنية المجتمع هو المعبد .وثانيهما يشمل على مجموعة من المرافق كالجسور ،المأوى الثابت ،الطرق العبدة ، مخازن المياه ،مشاريع الري وجميع العناصر الاخرى التي ادت الى تكسية الموضع الطبيعي بظواهر اصطناعية من عمل الانسان وقللت من اعتماد المدينة على الارض مباشرة وزادت من سيطرة الانسان على البيئة، ومع ان هذه المدن كانت تمثل ظاهرة جديدة في مجرى عملية الاستيطان البشري فان سكان لكسروخفاجي قد قدرت باحتوائها على 19,000 و 12,000 نسمة على التوالي وذلك خلال الف الثالث قبل اليلاد . ولم تصلنا الا تخمينات ايضا عن مساحة مواضع البعض منها ، فمثلا كانت بابل تحتل موضعها لايزيد عن 3,2 ميلا مربعا والوركاء ، ميلا مربع واور حوالي 0،3 ميلا مربعا [*].

وعلى الرغم من خطورة التعميمات فيما يتعلق بالبنية الداخلية لهذه المدن الا ان الحفريات الاثرية التي اجريت في بعض المواضع عندنا تشير الا ان هناك تفاصيل عامة تشترك فيها بعض المدن القديمة وعلى اساسها تمكن الباحث ادمزان يقدم لنا التعميم الاتي : تحتل المباني العامة كالمعابد والقصور قلب المدينة القديمة وتعتبر هذه المؤسسات البؤرة التي تتوجة اليها انظار السكان ، ومنها تتفرع الطرق العامة . تقع دور الطبقة الغنية من السكان على امتداد هذه الطرق الرئيسة وتتصف باتساع مساحتها وتعدد غرفها ومرافقها .اما احياء الطبقة الفقيرة فانها تقع خلف الاحياء السكنية للطبقة الغنية وهي ذات دور ضغيرة المساحة تخللها ازقة ضيقة ملتوية .وتتركز المناطق التجارية في العادة على واجهات الانهار القريبة او على ابواب المدن وفي الغالب كانت المدن تحاط بالاسوار والخنادق لحمايتها من هجمات القبائل المتجولة واطماع الحكام المجاورين وتحاط المدن والقرى والحقول الزراعية واخير تظهر الاراضى الصحراوية التي يتجول فيها الرعاة .اما فيما يتعلق بتكوين دور سكني فقد كتب طه باقر يقول (وقد اظهرت التنقيبات نماذج الدور السكني من مختلف عهود العراق القديم ومن بين ذلك فجر الآلات فكانت البيوت تبنى من اللبن هي على الاغلب مؤلفه من طبقة واحدة ويحتوى كل بيت على جملة حجرات تتوسطها الساحة المكشوفة وقد وجد احد هذه البيوت في الخفاجي وهو ذو خمس حجرات صغيرة تبلغ مساحتها نحو 10 X 6,5 مترا اخر اكبر منه دوعشر حجرات

[*] 8) جغرافية المدن ص 10.

مساحتة 20X30 مترا .وقد عقد بعض الابواب بالعقادة باقواس صحيحة والعادة انه يوجد في البيت شبابيك للنور .

ان ظاهرة التباين في استعمالات الارض داخل المدن تدلنا على ان المدينة الواحدة كانت تجمع في الغالب بين عدد الوظائف التي تخدم بها سكانها المحليين بالاضافة الى الجماعات البشرية المحيطة بها .وتشمل هذه الوظائف على الوظيفة الاقتصادية والدينية والسياسة والحربية ومن الطبيعى ايضا ان تبرز احدى هذه الوظائف على غيرها في بعض المدن مما يشجعنا على الافتراض بأن هناك مدنا تبرز بالدرجة الاولى على احدى الوظائف دون غيرها وعلى هذا الاساس يمكن الادعاء ان كوثي (تل ابراهيم) نفر ،كيتش ،الوركاء واريدو كانت مراكز للتلقين الدينى ومن الصفات البارزة لهذه المدن احتواؤها على الهياكل الدينية ، ومقرات الالهة والمعابد والزقورات كما ان هذه المدن كانت مواضع احترام الملوك والحكام في كل عهودها ولم تتاثر مراكزها بالعداء والتنافس الذي كان يدور بين الحكام لاهميتها الدينية.

وهناك طائفة اخرى من المدن القديمة وجدت بالدرجة الاولى او واجهت لتكون حصونا وعواصم في نفس الوقت كما كانت الحالة في مدينة اكد سنة 1753ق.م وقد دعت وظيفتها ان تحاط المدينة بجدارين منيعين وقناة .ومن الامثلة الاخرى على المدن العسكرية تللك القلاع المنيعة التي اوجدها الاشوريون في شمال العراق وفي اماكن مرتفعة مثل اربيل وكركوك والعمادية وغيرها .

اما بابل فانها خير مثال على المدن المتعددة الوظائف .كانت تقوم بوظيفة سياسية وعسكرية وكانت مقر دينيا وعلميا في وقت السلم ،زيادة على كونها ملتقى التجار ولهذا فقد كان عليها ان تقدم نشاطات تجارية .ولهذا الصنف من المدن القديمة يمكن ضم اشور ونينوى وبعض المدن الكبيرة الاخرى بالنسبة لذلك العصر .لقد اندثرت معظم هذه المدن القديمة لها بسبب تغير الانهر لمجاريها او بسبب الحروب والمنافسة بين حكامها او لهذا وذاك ولاسباب متعددة بشرية وطبيعية ولم يبق منها سوى الاثار .اما المدن الاخرى فان بقاياها لاتزال ماثلة للعيان وعاشت على نفس المواضيع او تحركت قليلا واعيدت بنيتها وخططها وقبعت باشكال حضرية عدة مرات خلال تاريخها الطويل واصبحت اساسا لبعض المدن الحالية في العراق. ومن هذه المدن يمكن ذكر كركوك واربيل والموصل والشرقاط وسنجار وتلعفر ودهوك والعماديه وعانه وهيت وكويسنجق وبدره واخرى غيرهما .

ونجد ان هذه المستوطنات والمدن القديمة تضم حاليا بقايا اثرية تعود الى مختلف الاطوار الحضارية التي مر بها العراق خلال تاريخة الطويل .

وقد ظهرت المدن القديمة في مناطق اخرى من العالم خارج البلاد مابين النهرين وتتصف تلك المناطق بانها ايضا مناطق سهلية رسوبية تكثر فيها المياه التي ساعدت على قيام حضارات زراعية .ففي وادى النيل نشأت مدن كثيرة منها ممفروطيية.

اما ابرز المدن التي ظهرت على بقاع نهر السند والتي اقترن ظهورها بحضارة فهي موهينو– دارو وحرابه .ويظهر بان كلا منهما كانت عاصمة لامبراطورية واسعة .ويعتقد ايضا بان كلا من هاتين المدينتين غطت مساحتهما على الاقل ميلا مربعا مع عدد من السكان قد يصل 20,000 نسمة.

وبعد انتشار حركة التحضير ظهرت المدن في سهول انهار الصين التي تعتبر رابع مركز من مراكز الحضارات القديمة التي نشاءت وتبلورت في العالم القديم اما اول حضارة ظهرت في العالم الجديد فيعتقد بانها حضارة المايا في المكسيك وشبه جزيرة يوكوتان .وقد تاخر ظهور القرى الزراعية هنا الى سنة 15,0 ق.م ويعتقد بان ظهور المدن تاجل الى حوالى 300 ق.م كما ويعتقد بان حضارة الاوتك التي ترعرعت في المكسيك قد اشتقت من حضارة المايا وقد بنى الازتك مدنا حقيقة مثل عاصمة (TENOCHTITHAN) التي كانت تمثل الموقع الحال لمكسيكوسيتي MEXICO-CITY وعاصمة المكسيك في الوقت الحاضر .وتقدر نفوس العاصمة القديمة بحوالي 100,000 نسمة .

اما المركز الثالث لحضارات العالم الجديد فهو القسم الاوسط من جبال الانديز حيث تطورت في تلك المنطقة حضارة الانكا التي كانت تحتل موقع جمهوريتا بيرو وبوليفيا حاليا وظهرت فيها بعض المدن كذلك. لقد كانت المدن القديمة بصورة عامة عبارة عن تجمعات بشرية حضرية صغيرة من حيث السكان والمساحة بالنسبة الى مقياس مدن الوقت الحاضر .وهذا يرجع لاسباب اهمها مايلي :

1–ان الانتاج الزراعي كان محدودا بحيث يقيم عدة مزارعين بإعاشه فرد واحد في المدينة .وبالرغم من استعمال المحراث الخشبي والرى السيحي واستعمال الفأس في عمليات الانتاج الزراعي الا ان هذه كلها ادوات بدائية لاتساعد على الانتاج على نطاق واسع .

2– قلة كفأة المواصلات وتاخر وسائل النقل لتحويل الانتاج الزراعي من الحقول الى المناطق الحضرية.لذلك فقد كانت حجوم المدن القديمة محدودة بكمية المواد الغذائية التي يجهزها الريف للمدينة.

3– بالاضافة الى قلة الانتاج الزراعى وصعوبة المواصلات بين المدن والمناطق التي تخدمها فقد كانت هناك صعوبات سياسية وحضارية جعلت من الصعب تشجيع قيام المدن الكبيرة

حيث كان النضام العشائرى هو السائد في المجتمعات القديمة وبالرغم من تاسيس الامبراطورية في سومر واشور ومصر فقد كانت المناطق التابعة لهذه الامبراطوريات تتمتع بقوة محلية لذلك كانت تلك الامبراطوريات تخشى توسع المدن وتصاعد نفوذها السياسي.

4-لم تكن المدن قد تطورت الى درجة بحيث تجذب اليها اعداد كبيرة من السكان الريفين اضف الى ذلك تعلق السكان الريفين خارج المدينة الزراعية كانت الطابع المييز للمجتمع[*] .

والمدن الاخرى المعروفة في العالم القديم قد خططت وانشأت في باكستان الحالية .وفي وادي النهر الاصفر في الصين الحالية وهذه المدن كان لها بعض التشابه مع المدن المصرية في ذلك الوقت حيث ان النقل والزراعة والفوائد الدفاعية ،جعلت اختيار هذه المدن على ضفاف الانهار الكبيرة.

حيث ان المعروف ان المدن الاسيوية القديمة واثرها على المدن الاخرى التالية لها من ناحية التخطي الحضري قليل جدا[**].

ان العصر الاشورى والبابلى قد شهد هو الاخر ظهور العديد من المدن في مابين نهرى دجلة والفرات وطبيعة الحال ان الصفات الطبيعية المتمثلة في : خصوبة ارض وادى الرافدين توفر الموارد المائية وملائمة الشروط المناخية فهي عوامل اثرت الى حد بعيد في ظهور المستوطنات وقيام الحياة الحضرية .ولقد دللت الحفريات الاثرية على تركز المعابد وابنية السلطة في قلب المدن الاشورية والبابلية وفي بعض الحالات يتخذ قصر الحاكم ضاحية المدينة على ضفة النهر موقعا له. ولو قارنا بين المدن الاشورية والبابلية مع مدن مصر ، نجد ان الاخيرة كانت ذات شبكة شوارع مستقيمة ومتعامدة باتجاة الشمال ، الشرق ،الجنوب ، والغرب بينما نجد ان شبكة الشوارع في المدن الاشورية والبابلية تتخذ الشمال الغربى والشمال الشرقى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى مسارا لها وذلك للاستفادة من اتجاهات الرياح والضياء في تنظيم جو المدينة[*].

اما لو قارنا المدن البابلية والاشورية نجد ان الاولى قد فاقت الثانية من حيث اتساع الحجم وحسن التخطيط .فمدينة بابل التي تقع على بعد 90 كليومتر ا الى الجنوب من بغداد تحتل موضعا يقدر3,2 ميلا مربعا على نهر الفرات وهي خير مثال على ما توصل الية القدماء من فنون التخطيط العمراني .

[*] 8) جغرافية المدن ص 17.

[**]1) Introduction to Urban planning page 5.

[*] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص 10-11.

تتكون المدينة من جناحين اشبة بمتوازى الاضلاع يخترقها نهر الفرات ويتصلان بجسر حجرى رابط فيما بينهما وايضا وجود قناة للماء تتفرع من الفرات وتشكل خطا دفاعيا يضاف الى قلعة بابل المنيعة تحتوي المدينة على 9 ابواب رئيسية فيها ويفتح كل باب على شارع رئيسى اهمها شارع الموكب التي تتركز على جانبية المعابد ،البرج المدرج والقصر الجنوبى وغيرها من المبانى والمشأت مثل باب عشتار اهم الابواب في بابل والتي يمر فيها شارع الموكب الذي تنتهي عند البرج المدرج (الزقورة) ، ومن ثم الجنائن المعلقة والقصر الصيفي لنبوخذ نصر الذي اعاد بناء مدينة بابل وجعلها اوسع واكثر رخاء من اية مدينة اخرى.

ان مدينة بابل اضافة الى كونها ذات وظيفة سياسية وعسكرية فانها كانت مقرا دينيا وعلميا في وقت السلم زيادة على كونها ملتقى التجار ولهذا كان عليها ان تقدم نشاطات تجارية ولهذا الصنف من المدن القديمة يمكن ضم مدينة اشور ونينوى وبعض المدن الاخرى بالنسبة لمدن ذلك العصر[**] .

3- التطوير الحضري في العصر اليوناني :

ان مدن الاغريق اتسمت بحجومها المتوسطة وقلة عدد سكانها وهذا ماسمح لهما ان تقدم الاعمال الفنية من تنظيم لارض المدينة وفق استعمالات مطابقة تماما للوظائف المحددة لها والتنظيم الداخلي لكل منطقة فيها .مما لاشك فيه ان نمو الملاحة في اليونان والعوامل الطبيعية هناك كانت تشكل عاملا حاسما في اختيار موقع المستوطنات التي ظهرت كافضل مأمن ضد هجمات الاعداء حيث كان موقعها على صلة معينة مع قمم المرتفعات التي حولها وهذا ما وفر لها حماية طبيعية ضد تيارات الرياح السريعة والقوية أيضا.

اتبع النظام المربع للمرور في تنظيم شبكة المواصلات الداخلية في هذه المدن التي تحولت بحكم موقعها الى مراكز للنشاط الاقتصادي والثقافي .اما الخصائص الاخرى لهذه المدن فهي تتمثل في :

- تجمع الابنية الاجتماعية والساحات في قلب المدينة .
- احاطتها بالجدران السميكة كاسوار للحماية والدفاع.
- عدم وجود شبكات غنية لتصريف النفايات والقمامة .
- نجاحها في مقاومة الرياح غير المرغوب فيها ذلك من خلال تنظيم شوارع المدينة في احداث التهوية المطلوبة.

[**] المصدر السابق ص 11-12.

اضافة الى كل هذا هناك صفة اخرى مهمة في هذه المدن كما سبق وان ذكرنا بانها تمتاز بقلة عدد سكانها وحجمها المتوسط وسبب محافظتها على هذه الحجم يعود الى كونها كانت تدفع بالزيادات من السكان الى مناطق اخرى للاقامة [*].

وحيث ان الحضارة الغربية بدات على جزر ايجة ونمت مع تكون ونمو اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد اصبح معبد اثينا ملتقى للناس وكان مركز للمدينة وبنمو الديمقراطية اصبحت البيوت ، وتسهيلات المجتمع من اهم عناصر التخطيط الحضري .

مع هذا الازدياد في البناء والنظام في القرن الخامس ق.م ظهر للعيان الشخص الذي عرف بمخطط المدن الاول واسمه هيبوداموس (HIPPoDAMUS) حيث انه درب كمعماري وهو الذي طور القواعد الفلسفية للتخطيط الطبيعي الاولي (PHYSICAL PLANNING) في المدن .حيث انه لاحظ المدن السومرية والمصرية ، ووضع نظرية الشوارع والنظام المستطيلي الشكل (RECTANGULAR STREET SYSTEM) (GRIDIROR PATTERN) لاعطاء المساحات الحضرية اشكالا هندسية والبيوت السكنية صممت لجعل الناس يحصلون على الخدمات العامة وتكون مرتبطة بالبنايات الحكومية .

ورتبت البيوت لضمان عزلتها التي كانت من اهم العناصر لديمقراطية اليونانيين[**] . هيبود اموس طور مفهوم الساحة (AGORA) باللغة الاغريقية ، حيث انها عبارة عن اسواق مركزية (في مركز المدينة) صممت على شكل خطوط مستطيلة الشكل وفي هذه المنطقة كانت تظهر الاسواق وهناك شواهد لتطوير تنظيم البنايات ومنع تجاوزات الناس على ممتلكات الدولة من الاراضى ومحرمات الطرق (RIGHTS OF WAY) .

وهبيوداموس هو الذي فكر بتخطيط ميناء اثينا (PIRAEUS) وميناء (RHODES) و (THURII) وتخطيطه الفلسفي وتصاميمه استخدمت في مدن اليونان المستعمرة وولايات المدن ، مثل (MILETUS) و(PRIENE) وخلال هذه الفترة نمت اثينا كثيرا حيث اصبح عدد سكانها 40000 نسمة بالاضافة الى 100000 من العبيد والغرباء وبعد ذلك وضع هيبوداموس نظرية اخرى في كون اثينا فقط يحب ان تكون بهذا الكبر لكونها العاصمة ، اما المدن الاخرى يجب ان تستوعب فقط 10000 نسمة وهذه النظرية تشمل ايضا الاهتمام بالتأمين الصحي ، وامكانية توصيل الماء والغذاء لسكان المدينة .ومعظم المخططات المعمارية وتصاميم البنايات في مدن اليونان كانت خلال القرون الثلاثة الاخيرة قبل الميلاد.وكان فيتروفيس (VITRRRRUVIUS) مهندس معمارى رومانى قد الف مجموعة

[*] التخطيط المعاصر للمدن ص13-14.

[**] 1)Introduction to Urban planning. Page 6.

من الكتب عن فن العمارة، كانت الفترة الهيلينية عبارة عن العمرالتقلدي لفن العمارة وباضافة الى كونها تحول من التخطيط اليونانى الى الرومانى .وكما انذر سقراط ان الحضارة يجب ان تنمو او تنتهي ولكن اليونانين وجدو التغير صعب وخاصة عندما تقدم السكان ونمو بشكل مرعب .بلاتو وارستوتل (PLATO ARISTOTLE) انذروا من سوء استخدام من قبل الناس الاغنياء بهجرتهم من المدينة الى ممتالكاتهم .لكن الاوضاع ساءت في المدن وكذلك الحروب المدمرة حولت اليونان الى مقاطعة رومانية في سنة 146 ق.م[*] .

4- التطور الحضري في العصر الروماني

اما المدن الرومانية في هذا العصر فمن المؤكد ان العوامل الطبيعية لشبكة الجزيرة قد مكنت الرومان من تطوير الزراعة والرعي ، ولكن زوال الغابات بسرعة وسوء الاحوال الجوية التي مرت في تلك الفترات وتحول الانهار الى ممرات غير صالحة للملاحة اضافة الى التقاليد المحلية السائدة قد غيرت واجهه هذه المناطق واكسبتها ذات الخصائص التي تمر فيها المستوطنات الاولية ، فالحاجة للدفاع حدود مناطق الاقامة قاد الى انشاء المعسكرات الحربية التي تحولت في فترات لاحقة عند الاستقرار الى مدن ونتجة للفتوحات واحتلال مناطق جديدة واسعة برزت اهمية التركيز للسيطرة على مناطق النفوذ هذه سواء بانشا مستعمرات استيطانية جديدة او اعادة اعمار المدن القائمة[**] .

واختلفت المدن الرومانية عن الاغريقية بالرغم من انها تاثرت واستمدت بعض تقاليدها منها حيث تبعت الاخيرة طبيعة تضاريس الارض في تركيبها بينما كانت مدن اروما مستوية مستطيلة الشكل بغض النظر عن صنفها.

ان اهم مميزات المدن الرومانية هي :

- وجود مركز اداري وتجاري .
- وجود اماكن للاستحمام والراحة اضافة الى انتشار المساحات الخضراء .
- انتشار المباني الواسعة مثل الملاعب، المسارح، السيرك، المكتبات الساحات ،المرافئ وماشابة ذلك .
- وجود شبكات المجارى القذرة والمياه العذبة والطرق[*] .

[*]1)Introduction to Urban planning. Page 8

[**] 7)التخطيط المعاصر للمدن ص17.
[*] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص18.

ان ظهور القوى المقدونية والرمانية ادت الى حدوث تغير جذري في اجزاء المختلفة من الشرق الاوسط الذي يمتد من المغرب الى ايران من تركيا الى السودان والذي يقع بين القارات الثلاثة افريقيا اسيا اوربا .وشملت ثلاث تطورات مترابطة

الاولى: زيادة عدد المدن.

الثانية:توسيع وتطوير الاشكال الحضرية الجديدة .

والثالثة :هي تقدم مختلف المفاهيم السياسة والاجتماعية للمدينة .

والمفاهيم اليونانية الرومانية كانت :المجتمع يحب ان يحكم نفسه بنفسه .واستخدم الاباطرة الرومان المدن ذو النمط اليونانى كميكانيكية للسيطرة والادارة وتمدن الناس في مقاطعات مختلفة .وكانت المدن الرومانية تحتوي على بنايات حكومية واسواق للتجمع (AGORA) وكان يوجد شارع رئيسي يخترق المدينة الى الضواحي .

وكان الفرق واضحا بين المدن اليونانية والرومانية حيث كانت فيها بلوكات مستطيلة والثانية مربعة .ومن المدن المهمة التي بلغت بكبر المدن المليونية تقريبا هي الاسكندرية ، سلوسيا ،ديزفون كوستانتينابول وروما الجديدة[**] .

ولم يكن الرومان ديمقراطيين ومن ملوك الاتروسكام في سنة 500 ق.م الى يوليوس قيصر في القرن ق.م الرومان قبلوا لشخصية هذا الحاكم الناجح .وكل امبراطور ناجح كان يجب عليه ان ينجزا انتزاعات اكبر للحصول على النظام بالنسبة للمفهوم الروماني .

حيث ان اثينا استبدلت بروما كمركز للعالم خلال فترة الامبراطورية الرومانية التي كانت موجودة من 27ق.م الى 324م. ولم يكن الرومان مثل اليونانيين ،حيث انهم قبلوا كل الغرباء في املاكهم ومدنهم وبذلك كبروا المدن وكان النمو سريعا جدا حيث ان 45000 عمارة واكثر من2000 بيت خاص انشأت في القرن الثالث الميلادي كذلك انشات (8) مباني قبل ان يفرض اغسطس حد الارتفاع الذي هو 70 قدم كأول مثال للتقسم والتحديد (zoning) في القرن الاول الميلادي .وبعد ذلك نمت الامبراطورية الرومانية بالقوة والغنى حتى وصل عدد سكانها 250000 الى 200000 نسمة. ومع هذا النمو ظهر نقصا في السكن والنقل واصبحت من المشاكل التي يجب معالجتها كذلك عانت روما من نقص في توزيع المياه التي ادت الى حفر قنوات ضخمة للحصول على المياه الصافية بالاضافة الى هذه الحالات بنى اباطرة روما تماثيل ضخمة تمثل عظمة امبراطوريتهم وايضا تماثيل شخصية لهم فكان كل

[**]5)the Changing middle estern city. Page 16-20

امبراطور جديد يبني ساحة عامة (porum) اكبر من السابق وهذه المساحات خدمت كمراكز للحياة السياسية والعملية في المدينة .

و فهم الرومان اهمية النقل وصاروا اول من يفكر بالتخطيط الاقليمي . فخططوا وبنوا شوارع خلال امتداد الامبراطورية التي انتشرت من اسبانيا الى ارمينيا وبريطانية الى مصر وهذه الشوارع سهلت الاتصالات والتجارة وكذلك سهلت حركة الجيش الامبراطوري. وبجهد لاستعمال مناطق جديدة ادى الى هجرة الناس الى روما وانشاء رموز لقوانين ونظم رومانية وانشاء مدن عسكرية في كل امبرطورية اغلبها كانت متشابهه تختلف قليلاعن بعضها ،كل هذا سبب تطوير البناء وفكروا بالبناء مربع الشكل (SQUARE PATTERN) وتم بناء المدن المستعمرة حيث كانت بنايتها في تقاطع الطرق الرئيسية والبيوت كانت كالشقق صغيرة وكان سقوط الامبراطورية الرومانية بصورة تدريجية حيث اصبح الناس كسالى ويؤمنون بالمتعة فقط والقيادة الرومانية كانت منقسمة على نفسها [*]. فهجم البرابرة عليهم ولاول مرة من خمس قرون اصبح للرمان اعداء على الجدار وظهور المسيحية ازالت القاعدة الصلبة للقوة الرومانية وتماثيل القياصرة اقتلعت واستعملوا موادها في عملية البناء والبنايات والاماكن الحكومية حطمت و ازيلت ،وتهدمت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي .وخلال المئة السنة التي تليها نقل قسطنطين العاصمة الى القسطنطينية وقسم الامبراطورية والجزء الغربي في الامبراطورية اصبحت تدار من قبل البرابرة وفي القرن الخامس بدات الفترة المظلمة وبدلت المدن المخططة كرموز لعظمة الامبراطوريات ،بمدن متوسطة الحجم استندت على القوانين المشرعة من قبل الاقطاع بدلا من القوانين الدمقراطية.

ان اهمية العالم القديم تتلخص بكونها استنبطت نمط طويل العمر من التخطيط للمدن وهذا النمط يحتوى على اربعة قواعد وهي القاعدة الطبيعة :وهي الظهور المرئى للبنايات والطرق والكراجات والمعالم الاخرى التي تعطيها شكلا معينا والاخرى هي القاعدة الاقتصادية للمدينة والقاعدة السياسة والاجتماعية التي هي ضرورية لحياة المدينة.حيث ان تصميم المدن في العالم القديم كان النذير لما نسميه الان النمط الحضري (URBAN PATTERN) والقاعدة والطبيعة للمدينة كانت مبنية جليا في المدن الكلاسيكية للعالم القديم ونمط الشارع النظامي كان دائما يفرض في التباين للتعرجات وللشوارع البارعة الارتجال للمدنغير الكلاسيكية.

وكان المركز دائما مسيطرا ببنايات حكومية او عسكرية او ادارية، وكانت القوى متمركزة في بؤرة المدن (GORE) الكلاسيكية ، والبيوت ملئت الفراغات الباقية وكان المخططون في

[*]1)Introduction to Urban planning. Page 9-10.

المدن الكلاسيكية قد وضعوا تصاميمهم من اجل سد حاجات الاحزاب الحاكمة والحكام وليس من اجل احلامهم او رغباتهم الفنية وكان المخططون تكنيكيين يعملون على ايجاد حلول لمشاكل المدينة، محدودة بشروط سياسية واقتصادية واجتماعية وطبيعية*.

التطور الحضري في العصور الوسطى

يجب ان نفرق بين دورين مرت بهما حركة التحضر وحياة المدن وهما :

1- من سقوط امبراطورية الرومانية الى القرن العاشر اي تقريبا من القرن الخامس الى القرن العاشر .

2- من القرن العاشرالى اوائل القرن الخامس عشر ويدعى بدور الانتعاش .

حلت في اوربا بعد تفكك الامبراطورية الرومانية حقبة زمنية طويلة تتصف بالركود الحضاري والاقتصادي وتدعى هذه الفترة (بالقرون الوسطى) بالنسبة الى الغرب . ويقابلها في الشرق (العصور المشرقة) فقد ضعفت التجارة مع زوال الاستقرار والامن في اوربا وسيطرة جماعات بربرية على مخلفات الحضارة الاورمانية ومنها المدن . وتحول المجتمع التجاري الحضري الى زراعي يعيش في ظل النظام الاقطاعي وينتج للاكتفاء الذاتي . وكانت من جملة النتائج السيئة لهذه الحالة المرتبكة التناقص المحسوس في سكان المدن . ان توجه المجتمع الاوربي نحو الاقتصاد الزراعي خلال فترة الركود الحضاري ادى الى تمهيد الطريق امام فترة الانتعاش حيث زاد الانتاج الزراعي ورجعت حركة التبادل التجاري المحلي والخارجي الى النشاط مرة اخرى نتيجة توفير الفائض من المنتوج وظهرت المدن لتقوم بوظيفة الوسيط كمركز للجمع والتوزيع . وازدهرت الحركة التجارية بين جنوب شرق اسيا وغرب اوربا عن طريق المحيط الهندي والخليج العربي والبحر المتوسط عبر الصحراء ثم عبر جبال الالب .وعلى طول هذا الطريق سواء عبر البحار او الصحراء او الجبال عادت الحياة الى المدن القديمة ثانية وربما ظهرت اخرى جديدة ال الوجود لتستفيد من هذه الفرصة الاقتصادية ،حيث ان بعض القرى الرومانية القديمة الواقعة عليه توسعت واصبحت مدنا تجارية كبيرة*.حيث ان بعد سقوط الامبراطورية الرومانية دمر البرابرة المدن الرومانية او استعملوها كقلع في حروبهم المحلية .فلم تتكامل الحياة الحضرية الريفية وعاد ظهور الحضارة الريفية .وانتقل الحكم المركزى الى ايدى القوى المتعددة الموجودة في القلع وبقت فقط الاماكن الدينية والمراكز الاجتماعية و الفكرية.

* 1)Introduction to Urban planning. Page 10.

* 8) جغرافية المدن ص 17-18.

وكان هناك طلب قليل للتخطيط الحضري مرة اخرى ،حتى القرن الحادي عشر .بانه لم يكن هناك عملية تخطيط او بناء حقيقى او حتى اعاده بناء لمدن جديدة خلال هذه الفترة وفي اواخر القرن العاشر اصبح الريف غير امن فطالب العبيد اللذين يشتغلون في الارض من الاقطاعيين حمايتهم خلف جدار المدينة .

حيث بدات اعادة تكوين المدن كمركز للعمل ،حيث ان الاقطاعيين ورؤساء الكنائس كلاهم انتفعوا من هذه الخاصية وبسبب هذا انشات العديد من المدن خلال القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، الكل يتعلق بالتجارة والتسويق بالاضافة الى الدفاع .

خلال القرن الثامن الى القرن الثاني عشر انشا عدد معقول من المدن في العالم الغربى وهذه المدن عكست اثر الديانة المسيحية على الفكر الغربى .وسمى نمط العمارة رومانسيك (ROMANESQUE) لانهم استخدموا نمط البنايات ذات القناطر المكتشفة من قبل الرومان من اجل العبيد والعمال اللذين كانوا يعملون في المزارع في ذلك الوقت ولا من الكنيسة كقوية روحية ومع وجود الحاجة لحماية الاقطاعيين بنوا المدن المحاطة بالجدران بعمل شاق جدا .وفي القرن الثالث عشر هناك عدد من المدن المحاطة بالجدران بعمل شاق جدا وفي القرن الثالث عشر كان هناك عدد من المدن العالم الغربي ولكن القليل كان يحتوي عل اكثر من 50000 نسمة واغلبها كانت تحتوي على 1000 نسمة وكانت الاسباب عملية وليس تخطيطية بسبب التحصينات الجدارية حيث كان هناك مشاكل توصيل المياه وتفشى الامراض .مع بداية العصور الوسطى ،نمت مدن قليلة الى احجام معقولة ،مثل مدينة فلورانس التي كانت قوية سياسيا ونمت الى 90000 نسمة. وكانت فينيسا من اهم مراكز العالم من الناحية التجارية للامبراطورية البيزينطية ، ونمت الى 200000 نسمة ونمت باريس ايضا من الناحية التجارية ووصل عدد سكانها الى 240000 نسمة في القرن الرابع عشر، مدينة لندن ايضا نمت في العصور الوسطى لم تكن مختلفة عن اي مدينة رومانية* .

واشتهر قرن الخامس عشر بحدثين مهمين وهما :

الاول كان اكتشاف البارود واستعماله في الحروب اثر على اعادة بناء الجدران حول المدن .وبنيت الجدران الاولى على بعد مسافة معينة من المدينة لخلق منطقة دفاع في الوقت ذاته ادت التكنيكات الجديدة للحروب الى الحاجة للجنود وكذلك للقوى من الاقطاعين .فبدات المدن تكبر في اتجاهين عدد السكان والمساحة .وخلال قرن واحد اصبحت الجدران حول المدن غير

*1)Introduction to Urban planning. Page 10-12

مجدية بسبب تطاير البارود والاسلحة وكمثال ازيل الجدار المحيط بمدينة فيينا واستبدل بشارع (RINGSTRASSE).

والحدث الثاني في القرن الخامس عشر هو ازدهار النهضة الاوربية (RENAISSANCE) الذي هو واضح حليا في ايطاليا بسب عظمة العوائل الحاكمة لمدن فلورانس ،فينيسا ، وروما بمساعدة قوة الكنيسة والبابا .فازدهرت الفنون الانسانية واثرت على التخطيط الحضري ايضا فازدهرت من الناحية الفنية فلم يتبدل الشكل والنمط الاساسي للمدن ولكن كان هناك اهتمام اكثر بالجمال فاهتموا ببناء القصور والكنائس والبنايات الحكومية لتكن نصبا تذكارية بارعة الجمال لكونها تمثل الاشخاص الذين امروا ببنائها وحصل المخططون والمصممون الحرية الكاملة من قبل الملوك ورؤساء الكنائس ولهذا السبب ابدع هولاء في عملية التخطيط الحضري في كل من فرنسا وايطاليا وانكلترا.

وانبثقت بعض المفاهيم للتخطيط الحضري خلال فترة النهضة الاوربية وكان في المقام الاول النظام المحمري (AXIS STYLE) لتصميم المدن وهذا معناة ان الشكل لحضري اصبح له قاعدة منتظم (CENYERLINE) واستعمال الساحات والشرفات (PIAZZAS) ومن اشهرها واجملها سان ماركو في فينيسيا ،وقام المخططون بفتح الاماكن الضيقة في المدن القديمة المحاملة بالجران واستعمل برنيني (BERNINI) منطقة مفتوحة لتمثيل الكنيسة لاراحة الناس الذاهبون الى الكنيسة في سانت بير (ST.PETER)في روما.

والتحول من فترة النهضة الاوربية الى الفترة الباروكية (BAROQUE PERIOD) التي تميزت في القرن الثامن عشر بالنصب التذكارية التي تمثل عظمة الملوك الحاكمون للعالم الغربي وهذه شوهدت في فرنسا .ان اهم انماط التخطيط الحضري في الفترة الباروكية هي عبارة تطوير للتخطيط الحضري في الفترة النهضة الاوربية وكان للمدن خط قاعدة او محور التي غالبا ما كانت مزخرفة لتمثيل عظمة وبهاء الملوك والحكام والطالب للامكنة المفتوحة لم ينتهي قط وانشات اماكن مفتوحة بمساحات كبيرة في المدن وبعد ذلك ظهرت لعيان انماط مهمة من العودة للمدن التي انشأت في العصور الوسطى (MENAISSANCE) والفترة الباروكية (BAROQUE PERIOD) واصبحت المدن المهمة للتجارة والاسواق وهذا بالتالي يعني وجود حيز طبيعي مركزي مرتبط باماكن الدينية والدنيوية وتصاميم النصب التذكارية للمناطق السكنية التي برزت في الفترة الاخيرة من النهضة الاوربية كانت تشير الى علامات مشؤمة وكان يوجد اشخاص محرومين ومضطهدين من قبل الكنيسة والحكام في القرن الثامن عشر وهذه كانت من الاشارات الاولية من ان التخطيط الطبيعي والتصميم وحدة لايكفيان لحل

المشاكل الاجتماعية بعد ذلك ترك هذا العهد انطباع غير محدود من ان امدن يمكن ان تكون جميلـــة ومثيـــرة وهـــذه الفكـــرة اســـتبدلت بـــالثورة الصـــناعية (INDUSTRIAL REVOLUTION)[*].

6- التطوير الحضري بعد الثورة الصناعية

لقد قدر سكان العالم بحدود 500 مليون نسمة في سنة 1650. ارتفع هذا العدد الى 1000 مليون نسمة سنة 1850 ثم الى 2000 مليون في سنة 1940 اما في سنة 1975 فقد وصل عدد سكان العالم الى 4000 مليون نسمة ولذلك فان سكان العالم ينمو بسرعة متزايدة اذ تضاعف عدد سكان في مدى قرنيين قبل سنة 1850، ومرة ثانية خلال اقل من قرن .وعلى اساس نسبة النمو الحالية فان سكان العالم سيتضاعف مرة ثالثة في فترة لاتتجاوز النصف القرن .اي اذا ما استمر السكان في الزيادة بالمعدل الحالي البالغ 9,1 % فمن المتوقع ان يصبح سكان العالم في سنة 2005 حوالي 8000 مليون نسمة .

ولابد من الاشارة الى ان قسما كبيرا من زيادة السكان قد حصلت في المراكز الحضرية وخاصة المدن الكبرى .فقد كانت نسبة زيادة سكان العالم بين سنة 1940 وسنة 1952(1,2%) في السنة، بينما كانت الزيادة في المدن الكبرى بنسبة 2% في السنة.

كما ان استمرار الهجرة من الريف الى المدينة كان ولا يزال ملحوظا منذ حلول الثورة الصناعية وخاصة في الاقطار الصناعية ونشهد الان ثورة حضرية تقترن بظاهرة الانفجار السكاني في جميع اقطار الكرة الارضية فمنذ الثورة الصناعية زاد سكان العالم وارتفعت الهجرة الى المدن وازداد عدد المدن وزادت حجومها وزادت ايضا الوظائف التي تقدمها الى اقاليمها واتسعت رقعة تلك الاقاليم كذلك .

ويمكن اختصار العلاقة بين النمو المدن والثورة الصناعية بالنقاط الاتية[*]:

1- استعمال قوة البخار واخيرا الكهرباء والبترول وحديثا الغاز الطبيعي في تحريك الاجهزة الميكانيكية ادى الى انجاز العمليات الانتاجية بدقة ووقت قصير وسبب ذلك زيادة هائلة في الانتاج الزراعي والصناعي وترتب على هذه الانتاجية العالية امكانية اعاشة اعداد كبيرة من السكان وتقليل الايدي العاملة الريفية الضرورية للنتاج الزراعي وتوجة الفائض من السكان اخيرا الى المدن .

[*]1)Introduction to Urban planning. Page 13-14.

[*] 8) جغرافية المدن ص24-26.

2- ادت تطوير طرق المواصلات على اختلاف انواعها الى ظهور التجمعات الحضرية وتركزها بشكل اعظم حيث ادت هذه الوسائل السريعة والرخيصة الى توسيع مناطق تجهيز المدن بالمواد الاولية والمواد الغذائية وظهر عنذلك نمو المدن وربط الريف بالمدينة كما نتج عن تطوير طرق المواصلات احداث كثير من التغيرات في البنية الداخلية للمدن وفي مواقعها وتوزيعها الجغرافي .

3- صحب الثورة الصناعية الاسراع في نمو كثير من المدن التجارية التي كانت موجودة سابقا وزادت من اهميتها ،لانها اصبحت مراكز مالية للصرف على المشاريع الصناعية ومناطق لجمع المواد الاولية وتوزيع البضائع المصنوعة.

4- لقد ظهرت كذلك مدنا صناعية جديدة بالقرب من مصادر المواد الاولية الثقيلة التي يتطلبها التصنيع بكميات هائلة والتي يكلف نقلها اسعارا باهضة ، فقد اقترن ظهور كثير من المدن بمناجم الفحم او الحديد .

5- كما ان نشاط التجارة واتساع نطاق حركة التبادل التجاري الذي اقترن بالصناعة قد ادى الى نمو المدن والموانئ المحلية الصغيرة السابقة و اوجد مدنا وموانئ جديدة اخرى[**] .

وبعد الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر ، انذر مالثاس (MALTHUS) بان الارتفاع بنسبة السكان سبب انخفاظا في مستوى السكن والعيش .وحاولت الامم المتقدمة ان تحول من حالة العيش المنخفظة هذه بالابتكارات والتجديدات التكنولوجيا بمقياس كبير .وكانت المشاكل تكمن في المناطق الريفية التي كانت مناطق زراعية بسيطة حيث اصبحت مصانعا لانتاج الغذاء وكذلك المدن جديده المنشأ (التبرعم) الى مجتمعات متقدمة جدا وبرزت مشاكل عديدة في عملية صناعية الفحم حيث كانت المشاكل بين الشركات والعمال .وكان لتقديم تكنولوجيا النقل اهمية كبيرة في زيادة نشاطات الانسان في مختلف المناطق .وكان اكتشاف البواخر البخارية والسكك الحديدية والاسلحة الحديثة لتسهيل استثمار الموارد الطبيعة بطرق جديدة.

وفي نهاية القرن التاسع وبداية القرن العشرين اصبحت التطبيقات العلمية الجديدة ملازمة لبيئة الانسان .حيث استعمل الانسان الاسمدة لتطوير المحاصيل الزراعية ،كذلك استعمل المخدرات الجديدة في الطب ومن المشاكل الرئيسية هو الازديات غير المعقول في عدد السكان حيث انهم يحتاجون الغذاء والخدمات وكذلك الرعاية الصحية ، اللراحة، والسعادة .فاحتاج الناس الى سكن مريح لان اشغالهم كانت مرهقة وكذلك التقدم الاجتماعي والاقتصادي

[**] المصدر السابق ص27.

والتكنولوجي ، كل هذه سببت الحاجة الى بيوت اكثر تقدما ،تصلها الخدمات وايضا مناطق للاستحمام والراحة وفي بعض مناطق العالم من افريقيا واسيا وامريكا اللاتينة ،كانت مستوى المعيشة منخفظة جدا ،حيث كان يسود المرض والمجاعة كل مكان .

ولم تساعد الهجرة الى المدن ولا المساعدات التي قدمتها الدول الغنية لهؤلاء من من تحسين احوالهم ،حيث ان الزيادة السكانية في هذه المناطق كانت اكثر من الزيادة في المواد الغذائية والخدمات.

كل هذه سببت مشاكل، تطوير السكن، مناطق لوقوف السيارات، المناطق المفتوحة، تحديد المواقع الصناعية، وتجديد المراكز التسويقية. وهنا نستطيع ان نصنف التخطيط الحضري من الاقليمي* وكانت الحاجة الى التخطيط الحضري في بداية القرن العشرين ،حيث في الفترة الانتقالية من المدن القديمة للقرن التسع عشر ،حيث كانت عملية التخطيط تتم من قبل المهندسين المعمارين ومهندسين المناظر ولكن بعد ذلك شارك في عملية التخطيط عامة وفي التخطيط الحضري خاصة الاقتصاديين والاجتماعيين ،فحصل التغير لان المهندسين كانوا يعتنون بالشكل الجميل فقط ، ولم يستعينوا بالداوافع الانسانية والاجتماعية في عملية التصميم للمدينة.وكان لانتشار النشاطات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، اثر في تكوين مراكز لهذه النشاطات وظهرت الحاجة الى ربط المراكز الى بعض وضمان الاتصال في مابينها بالمماشي بين القرى في بادي الامر ثم بالشوارع التي تربط القرية بالمدينة، والمدن فيما بينها .حيث انه يوجد علاقة متبادلة بين مراكز النشاطات وتطور الاتصالات فتحتاج عملية فصل مراكز النشاطات عن بعضها الى اتصالات فيما بينها .

وكان من اهم المشاكل هو بعد البيوت السكنية عن مراكز العمل التي تقع في المنطقة المركزية التجارية للمدينة (CBD) حيث كان الناس يعانون من صعوبة الوصول الى مراكز العمل لعدم توفر المواصلات او قلتها ، فاختار البعض تغير مكان عملهم ليكونوا قريبين من محل سكنهم او تغير محل سكنهم ليكونوا قريبين من النطقة التجارية المركزية التي تكون من المناطق غير الملائمة للسكن وعادة .

وكانت هناك مشكلة وقوف السيارات في المناطق التجارية، اي عدم توفر الكراجات واماكن وقوف السيارات فاختار قسم من اصحاب العمل مناطق اقل سعرا واقاموا هناك مراكز عملهم لتسهيل وصول العمال الى مراكز العمل وحل مشكلة وقوف السيارات المتزايدة مع تزايد عدد السكان مع اختلاف النشاطات التجارية والصناعية والثقافية والاجتماعية وغيرها. ان اكتشاف

*3) Urban and Regional Planning. Page 20-23.

البارود فقط لـه تـاثير كبير وهائل علـى المنـاطق الحضـرية وعلـى التخطـيط الحضـري وكـان لاختراع القوة البخارية والمكائن البخارية في سنة 1769 نفس التاثير ، وهذه كانت بداية الثورة الصناعية (INDUSTRIAL REVLUTION) لانها قصدت ان تستبدل القوة البشرية بالمكائن .

ولم تتوقف الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر .حيث ان التأثيرات الاولية للثورة الصناعية زادت من الازدحام (CONGESTION) وكذلك زادت المخاطرات من تلوث المياه والجو. والنقل كان هو مفتاح الثورة الصناعية لجلب المواد الخام الى المعامل وبالعكس لصرف المنتوجات الى الاسواق من دون النقل لم تكن تحدث الثورة الصناعية .ولذلك فرضت المدن على نفسها شوارع جديدة ،خطوط الشبكة الحديدية ،الموانئ والقنوات .وهذه التسهيلات لعملية النقل فرضت على الانماط الموجودة اصلا مسببة تعارضا مهلكا .

ومـع الثـورة الصـناعية جـاءت ظـاهرة جديـدة لحيـاة المـدن وهـي الرحلـة الـى العمـل (JOURNEY TI WORK) وسبق الثورة الصناعية بعض الاعمال التي كانت تتم في البيوت والتي سميت صناعات كوخية (COTTAGE INDUSTRIES)، او في محلات قريبـة مـن البيـوت. ومـع المكننـة الصـناعية تركـزت عمليـات الانتـاج فـي المصـانع. والثـورة الصناعية سببت بناء مدن جديدة اكثر مما فعل اكتشاف البارود* .

حيـث ان تزايـد الازدحـام وخطـر تفشـى الامـراض سـبب حركـة نحـو مـدن الضـواحي (SUBURBS) وهذه احدثت تطويرات في الشوارع وخطوط السكة الحديدية .

وفي اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ،اصبحت مدن الضواحي مفضلة من قبل الناس الاغنياء بينما سكن العمال المحدودي الداخل في الاماكن المزدحمة في المدن المركزية .فأمتدت مدن الضواحي وبسطت ذراعها حيث كان وجودها في المدن الامريكية المعاصرة قبل قرن.

حيث اثرت عملية اكتشاف السيارة على انتشار مدن الضواحي او البيوت السكنية لمسافات بعيدة ابعد مما كانت عليه في المدن القديمة المركزية.

وكان نمو المدن سريعا جدا ،ومشاكل التصنيع من تنقل وسكن وغيرها ظهرت في اواخر القرن التاسع عشر .واول تحرك نحو تحسين الحالة الصحية كانت في انكلترا بتطوير حالة البيوت ، وانشاء بيوت جديدة صحية من قبل الحكومات في انكلترا وفرنسا والمانية الاتحادية والنمسا والولايات المتحدة الامريكية ، وبدات عملية التقسيم (ZONING) في المدن .واصبح من

*1)Introduction to Urban planning. Page 14-15

الواضح في القرن العشرين انه البناء التحتي (INFRA STRUCTURE) في المدن وتوزيع المياه والتنقل، والشوارع بالاضافة الى الحالة الصحية وخدمات المجارى كلها تحتاج الى تخطيط وبناء من قبل حكومة المدينة نفسها .

وظهرت بشائر رومانسية (خيالية) في التخطيط الحضري في نهاية القرن التاسع عشر وهذه كانت الثورة الصناعية (ANTI-INDUSIRIAL REVOLUTION) او (ANTICITS) كما هو الحال في مدينة (new lanask) الانكليزية .

ان ضخامة الثورة الصناعية بعيدا عن تدخل طبقة النبلاء اوهن الشؤون الاجتماعية ،ادت الى انشاء عدد من المدن الجديدة واوحدة من هذه المدن هي مدينة سالتير في انكلترا عام 1852 لاسكان 3000 عامل قرب معمل النسيج .وانشأت مدن اخرى في المانيا الاتحادية بسب معامل انتاج الاسلحة لاسكان العمال العاملين فيها قرب ايسين[**] وكذلك مدينة بورنماوث (BOURNEMOUTH) انشأت بسبب اسكان عمال الشوكولاته وهناك امثلة مختلفة في فرنسا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة الامريكية واماكن مختلفة اخرى .

7- نشوء المدن على مر العصور

ان موضوع اصل المدن اصبح من المواضيع التي يتم البحث عنا ونتائجها مسجلة الان في مقالات مختصة او بنود ومقالات في المجلات .

حيث ان المدينة يجب ان تكون مشتقة في مظهرها الاولى من اي تكتل بشرى يعيشون مع بعض على قرب متماسك في مجمع من البنايات على سبيل المثال ،من مسكن عائلى ،عشيرة او قبيلة او من قرية ،معسكر او مجتمع دينى .

او تكون المدينة بارزة بمركزها الادارى ، المبنية من قبل الدولة التي تكون قد نضمت اجتماعيا و سياسيا خلال منطقتها المشغولة .وعاصمة هذه الدولة هي نواة المقاطعة الموحدة ، التي لاتتصف بصفات خاصة بها من دون باقى المقاطعات[*] .

وبعض الباحثين اخذوا بعين الاعتبار الصفات الضرورية لمدينة طارئة وهي انها تخدم مركزا ثقافيا ودينيا . واخرين اعتبروا المدينة بانها تمثل تحول من تنظيم المجتمع على طول الحدود صلة القرابة الى طول خطوط الطبقات الاجتماعية او الاقتصادية.

واخرين وجدوا تفاضلها الوظيفي في تطورها كمركز اقتصادي لتجميع وتوزيع البضائع والبعض الاخر يقول انها مركز نشاط القوى السياسية او العسكرية .

[**]1)Introduction to Urban planning. Page 15-16
[*]2) the City in the ancient World . page 6.

ولايوجد معيار مفرد يفي لهذا الغرض اي لتعريف المدينة . حيث يجب النظر في صفات مختلفة وليس من الضروري ان تتوفر جميعها .

حيث ان جزء من حجم وكثافة السكان لا يكونون مدينة من قرية كبيرة او بلدة ، حتى لو كانت هذه الشواهد الطبيعية عموما ، ترتبط مع المظاهر الوظيفة للمدينة كالحرف والتجارة ، والطبقات الاجتماعية والسيطرة المركزية ولا يعنى توحد الحكومة او وجود جدران دفاعية فيها انها تشير الى المدينة . حيث ان التصنيع ، التركيز على الحرف اليدوية ، اصبحت الهيئة الرئسية لعدد من المدن الحديثة و ظهرت على مقياس صغير في عدد منها ولا يجوز استثناء تركيز الحرف في القرى والارياف .

وهناك عامل اخر جعلت المدينة الحديثة اكثر بكثير من كونها مركز للسكان ، والاقتصاد ، حيث اصبحت السيطرة هي التمدد السريع منذ الثورة الصناعية للنقل والاتصالات. وفي العالم القديم مدن قليلة نمت الى حجم معقول ، مثل مدينة بابل في عهد نبوخذ نصر في القرن السادس ق.م وانطاكيا والاسكندرية في عهد السلوسيين، والرومانيين في القرن الثاني قبل الميلاد او روما وبعد ذلك كونستانتينابول خلال فترة الامبراطورية الرومانية .واغلب المدن احتوت على بضعة الالف من السكان وكانت مراكز زراعية وكان اغلب سكانها يذهبون الى حقولهم ليزرعوها او كانوا من الطبقات الاجتماعية العليا ، عاشو على الدخل الذي يحصلونه من ممتلكاتهم وايضا خدمت بعض المدن بوظائف عديدة اخرى مثل الصناعة ، التجارة ، الثقافة . مركز للحكومة او للدين . حيث لم تتعدى الاتصالات عن (الصياح) والركض او ركوب الخيل لنقل الرسائل والبضائع ، والمرآة العاكسة او الضوء الساطع الذي كان مداه هو حد الرؤية . حيث مكنت الكرفانات على حمل ونقل البضائع من مكان الى اخر بواسطة البغال .

وكان دور المدينة في العالم القديم هو دور القلة من الناس الذي لا يتراوحون العشرة بالمئة من عدد السكان .اما باقى السكان كانو يشتغلون بالزراعة او برعي الاغنام والقطيع .وفي المدن الحديثة معظم هؤلاء (اكثر من النصف) من سكنة الحضر[*].

في البداية لم تكن المدينة سوى نواة اجتماعية صغيرة جدا اعتبرها الباحثون اول حدث في نشوء الحياة الحضرية فالحاجة الى الحصول على الغذاء والحماية اللازمة من اجل البقاء كانت هي الباعث الى تجمع الافراد حول بعضهم في اماكن معينة .

[*]2) the City in the Ancient World. Page 6-7.

هذا التجمع او هذه النواة ادت الى حدوث تفاعل اصيل بين الناس والبيئة واتجهت البيئه نحو التفتيش عن الوسائل التي تنظم طريقة حياته ضمن هذا المنظور نجدة قد شيدت الاماكن الجماعية الشبية بالقاعات الكبيرة لغرض السكن والتي احتوت بداخلها على جملة من الحجيرات وبمرور الزمن انشأت العديد من الاماكن الجماعية التي اصبحت متمايزة فيما بينها من حيث المناعة والقوة على توفير مستلزمات البقاء للافرادها .

هذا التمايز قاد الى انتقال الافراد من التجمعات الاقل امانا وتحصينا الى الاكثر ، مما انشأ مجمعات كبيرة سمحت بدورها نتيجة لهذا التكدس بالمباشرة في تنظيم الادارة والوظائف في الداخل . ولو لاحظنا تطور نشوء المدن في عصور ما قبل التاريخ في كل من مصر ، وادي الرافدين ، الهند ، ومناطق الشرق الاقصى لم نجد تكوين هذه المدن تلك الاهمية للشروط الصحية للسكن بالقدر الذي علية من اهمية هذا التكوين لكل من (المعبد ، النصب وقصر الحاكم) والذي انشأت بمقياس واسع تعبير عن القوة والقدرة . ان انشاء المدن بهذا الاتساع وهذا المحتوى وطبيعة مواد البناء المستعملة في التشيد اضافة الى استخدام الكتل البشرية كقوة عاملة ، كلها مؤشرات توضيح التنظيم الاجتماعي وتعكس الفارق الطبقي في هذه المجتمعات. فقراء الناس تتكدس في المباني الجماعية عند حدود او اطراف المدينة بينما في الاتجاة المقابل لهم تقطن الشرائح الاخرى من المجتمعات المكونة من طبقة الاشراف والنبلاء وتهيمن قصور الحكام والقادة التي تتصف باتساع المساحة المزغرفة في الجنينات والحدائق الجميلة.

ان مناطق الحضارة والثقافة في كل من مصر ، بابل ، اشور ، فينيقية ، فلسطين ، فارس ، اليونان ، الامبراطورية الرومانية ، والهند والتي عرفناها من خلال الابحاث والحفريات الاثرية برهنة لنا على مستوى الذي توصل الية الاقدمون من فن تخطيط تلك المجمعات والمدن التي فرضت وجودها على عالمنا المعاصر وخصصت لها الاموال لغرض المحافظة عليها وصيانتها كدليل ربط مادي بين حضارات مختلفة الشعوب عبر التاريخ فالمستوطنات التي كانت قائمة في مصر القديمة يمكن اعتبارها من اقدم المجمعات السكنية في التاريخ* .

وتكونت المدينة من المجتمعات والقرى بعد نموها وتطورها على مر العصور بالاضافة الى الصياد والراعي والفلاح ضمت عمال المناجم والحطابون وغيرها وكل واحد من هؤلاء اتى بادواته ، وتقاليده ، وطباعه ، واختلطوا مع بعض في المدينة وهناك ايضا المهندسون والبحارة

* 7)التخطيط المعاصر للمدن ص 7-9.

والاقتصاديون والفنانيون والتجار وموظفوا البنوك والجنود ورجال الدين ومن كل هؤلاء تكونت المدينة وتطورت .

وهذا الاختلاط البشري سبب تمدد في النشاطات البشرية في جميع الاتجاهات وكان من الاسباب التحول البشري ونمت المدارس وتطورت الجامعات والمكتبات .

حيث كان تغير القرى التي تعرضت الى مشاكل مثل الفيضانات والجفاف ، والتي كانت بطيئة الحركة والنمو الى شكل موحد وهي المدينة التي تحكم بسلطة تعطى اوامرها وتنتظر الاطاعة[**] .وتحول الاقتصاد الريفي غير المركزى الى اقتصاد حضري تحت سيطرة الملوك ، حيث كان الملك في المراكز، وكان يسيطر الملوك على حضارات ومدن جديدة ويضعوها تحت سيطرتهم وسيطر المعابد .في بعض الاحيان انشا الملوك مدن جديدة واحيانا حول الملوك بعض القرى الى مدن بعد اجراء تغيرات في مبانيها وشكلها ووضعوها تحت سيطرة قاداتهم[***] .وعندما نريد ان نعرف المدينة فاننا نلاقى صعوبة مافي ذلك لاختلاف الصفات التي تتميز بها كل مدينة عن الاخرى ،ونستطيع تعريف المدينة :

هي عبارة عن تجمع للناس اكبر من المجموعات السكانية الزراعية والتي فيها يكون موجود سكان زراعيين ،وتكون اما دفاعية او ادارية او دينية او تجارية او صناعية او سياسية .

حيث ظهرت فكرة الحضرية ، حوالى 4000 ق.م في جنوب العراق .ويدعي كينون (Kenyon) وميلارت (MELLART) ان المدينة وجدت في حوالى 7000 ق.م في وادى الاردن واناضول حيث ظهرت الزراعة المستقرة في 8000 ق.م وتكونت القرى الزراعية البسيطة في حوالى 7000 – 5000 ق.م .

وكانت المدن القديمة متكونة من مركز محاط بجدران ضخمة سبب هذه الجدران لم تكن دفاعيا فحسب وانما لغرض السيطرة على كل المدينة ، وكانت هده المدن الصغيرة تمثل بما يسمى المجتمع وكان مركز المدينة مستغل لغرض التشاور بين الحكام والقضاة وايضا مكان تواجد الاسواق وتشمل بالاضافة الى القصر وتوابعه ، المعبد.وحول القصر والمعبد كان يوجد بيوت الموظفين والسكان الاصلين للمدينة.

وخارج الجدران كانت موجودة منطقة الضواحي وكان يوجد فيها بيوت متناثره ومزارع ومراعي وفي بلاد مابين النهرين كانت منطقة الضواحي تشمل ايضا المنطقة التجارية . وفي بعض المدن كانت منطقة الضواحي تحتوي على معبد ثانوي .

[**] 4)the City in History. Page 40-45.
[***] 4)the City in History . page 45-47.

وكانت هذه المدن صغيرة الحجم لاتتجاوز العشرة هكتارات والبعض عشرين هكتار ، وكانت مدينة اور مساحتها 89 هكتر في سنة 2100 ق.م .

وكان شكل الجدار ياخذ دائما شكال هندسيا ، وكان مواقع القلع جيدا، وكل مدينة كان لها نظام خاص لشوارع وفي كاهون في مصر كان التقسيم بالنسبة للحالة الاقتصادية والاجتماعية* .

ونستطيع ايضا ان نعرف المدينة بانها مجتمع اعضاء يعيشون في قرابة (PROYIMITY CLOSE) في ظل حكومة مفردة وفي بنايات موحدة ضمن مجتمعات سكنية موحدة وعادة محاط بجدار . وهذا التعريف يغطي عدد من القرى والمعسكرات ومجتمعات الدين . حيث يمكننا ان نصف المدينة بانها المجتمع الذي فيه يكون عدد معقول من السكان والذين يمارسون نشاطاتهم خلال المدينة في اماكن غير ريفية. ولكن المجتمعات الاخرى الاديار اوالمعامل الصغيرة محاطة بالبيوت السكنية للعمال يمكن ان توصف بنفس الوصف . وهناك وصف اخرى للمدينة :

هو المجتمع الذي يمد تاثيره وسيطرته على مساحة اكبر من التي هي ضرورية لبقاء اكتفائه الذاتي .

حيث ان الطلاب الجدد لموضوع المدن الاولية ينظرون الى السيطرة في العلاقات الاقتصادية انها اما تكونت بفائض كافي من البضائع في مقاطعتها . لتستطيع ان تمد تاثيرها او سيطرتها بواسطة التجارة او سيطرتها على المدن بواسطة السيطرة على البضائع او الدخل الاجمالى لبناء حياتها الجديدة ولكن في المدن القديمة كان التاثير سياسيا وليس اقتصاديا وكذلك ممكن ان يكون التاثير او السيطرة عسكريين.

وكذلك نشوء المدن في سهل دجلة والفرات كانت مثل المدن في امريكا الوسطة دينية المنشأ وكان الاشوريون من الاوائل الذين كانوا عسكرين ايضا حيث نستطيع ان نقول بان المدينة القديمة هي التي كانت مسكونة جيدا وكان لها مركز موحدا ومعظم سكانيها كانوا يعملون بحرف غير قروية والتي جاءت للسيطرة على اراضي منتجة وغنية بالمقارنة الاقوامها المطلوب .

وهذا التعريف لم يأخذ بنظر الاعتبار الصفات التي تشتهر بها بعض المدن مثل معتقد دينى مشترك تمركزت في وضع مقدس وكونت حولها مجتمع ومن خلال الدين فرضت سيطرتها وتاثيرها او موقع جغرافي مهم بالنسبة للتجارة الى مركز لتجمع وتحرك العربات .

*5)the Changing maiddle eastern city. Page 11-16

وهناك امثلة اخرى مثل التقدم التكنلوجي وخاصة الكتابة ، والفن ، والعمارة والمنظمات الادارية لادارة الزراعة ،التجاروة والشؤون الحضرية. وفي هذه المناقشة نستنتج بان المدن لها وظائف مختلفة عسكرية، تجارية، صناعية ،ادارية ، دينية ،ثقافية .ان نشؤ المدينة كان تدريجيا ولم تكن هناك لحظة معينة التي عندها نستطيع ان نقول انها تحولت من قرية الى مدينة . ولكن قد تكونت هناك مرحلة متوسطة بين القرية والمدينة في العصور القديمة ، وقد نمت بعض المدن لتستحق ان نسميها بالمدن الضخمة (Megalapolis)* حيث ان المدن في امريكا الوسطى والصين الى الوجود بصورة مستقلة وليس بالانتشار (diffusion) .واقترحوا لذلك ان نشؤ المدن هي المرحلة طبيعية في تطور اي مجتمع بشري الذين لهم الاحوال البيئية الجيدة وتوفر لهم الظروف الاقتصادية ،والثقافية ،وهذه تنطبق على المناطق التي تكون بينهما علاقة متبادلة ،مثل بلاد وسط النهرين في الشرق الاوسط ،مصر ،في وادي الميت كانان في الشرق ،اناظوليا في آسيا الصغرى ،وجزر وسواحل ايجه ،اليونان الكلاسيكية الدولة الهيلينية ،وايطاليا والامبراطورية الرومانية. وتاريخ المدينة في هذه المناطق تبرز السؤال فيما اذا كان نشوئها مستقلا او بالانتشار، وايضا فيما اذا كانت المدينة مرحلة طبيعية في استجابة الكائن البشرى الى ظروف بيئية مثل المناخ ،الجغرافية ،انتاج المحاصيل ،وتوزيع المياه ،وانها تمثل الانجاز في الانسان نفسة ،اقتصاديا ،دينيا ،تكنولوجيا ،واجتماعيا .

وبالاخذ بنظر الاعتبار اصل المدن من ابحاث استعملوا فيها طرق وشواهد بيئية ،واجتماعية ،واثارية ،لمعرفة فيما اذا كانت المدينة انشئت في منطقة ما بصورة مستقلة او عن طريق الانتشار من بعض المناطق المتطورة حضريا.

حيث ان المدينة اذا لم تكون قد انشئت في الفترة القبل التاريخية (period prehistoric) ،فعلى الاقل يجب ان يكون معرفة الفترة الزمنية التي ظهرت فيها المدينة دقيقة.

حيث انشئت المدينة متاخرة في عهد تطوير الانسان .وكانت المدينة الاطار التي فيها حقق الانسان تقدما سريعا في السيطرة على البيئة والثقافة ،وادت الى تقدم الانسان في كل النواحي الاجتماعية والثقافية والسياسية والتجارية*.

8- مدن العصر الذهبي

ان اكتشاف الطرق الجديدة للنقل والتجارة البحرية حمل معه ظهور مدنا جديدة على سواحل البحار التي مع توسع الملاحة البحرية ازداد دورها في ميدان التجارة الخارجية كمراكز

*2) the City in the Ancient World. Page 7-9.
*2) the City in the Ancient World. Page 9-12

للتجمع والتوزيع . ان تركز الثروات ادى الى انتعاش حركة البحث والاستطلاع نحوا المزيد من الاكتشافات الجديدة لمعرفة علوم وثقافة العصور السابقة والتي من خلالها تم الاطلاع على مدن العصور الاولى التي احتوتها من نصب انتيكية رائعة الهمت رواد الفن من (BRUNELLESCHI FILLIPO) الى (MICHELANGELO BUOMARROTI) حيث تدل اعمالهم المعمارية التقلدية على مدى تاثرهم بهذه الفنون .

اتجه تركيب المدن في العصر الذهبي البساطة والوضوح فتحولت مدن القرن الوسطى ذات المساحات الصغيرة العشوائية التركيب الى مدنا بمساحات منتظمة مسيجة بابنية ذات ارتفاعات متساوية مما اعطاها شكلا معماريا منسجم الواجهه واصبحت المدينة ذات اجزاء واضحة المعالم التخطيطية ،لم نعهدها في القرون الوسطى ، فقبة الكنيسة والقصر المحاط بابداع اشكال الفن الحدائقى هما من السمات البارزة في محتوى وتركيب المدينة في هذا العصر .اما مرحلة الباروك التي اعقبت فترة العصر الذهبي فلم تكن في الحقيقة الا نمو متواصلا او مستمرا لفن العصر الذهبي وكأنه يمثل مرحلتة الاخيرة وخصائصة التي تتمثل في كونه كان :

- اكثر حرية في اختياراشكال الابنية المعمارية واحجامها الداخلية في نحت فضاء المدينة .
- تخلى عن التعامد في التصاميم وادخل الاشكال الكنتورية اللدائرية والمنحنية اضافة الى اشكال النجمية للساحات والشوارع المستقيمة المنتظمة .
- احتلال القبة موقعا بارزا في فضاء المدينة المعماري وهذا مالم تشهد مدن القرن الوسطى او العصر الذهبي .

كما اشتهرت هذه الفترة بانشاء الحدائق والباركات الجملية نذكر منها على سبيل المثال بارك فرنسا ، التي اشتهرت بفنها الحدائقي الرائع[*] .

9 – مدن القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي

ان المدن التي شيدت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية وتلك التي شيدت في العصور الوسطى الاقطاعية قد انشأت عشوائيا وانتشرت حول الاقطاعين او مراكز العبادة والكاتدرائية واتسمت بأنعدام الشروط الصحية للسكن التي غالبا ما كانت السبب في انتشار الاوبئة والامراض . وان نظريات الباحثين في تنظيم المدن في العصر الذهبي لم تجد انعكاسا لها الا

[*] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص22-24.

في القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي حيث اطلق على مدن هذه الحقبة الزمنية بمدن الملكيات المطالقة ذلك بسبب التحول نحو توحيد الاقطاعيات وتكوين دوليات مرسومة الحدود ذات مواقع او قطاعات عسكرية محدودة ساعدت على تثبيت وتقوية القدرة الاقتصادية لهذه الدول الملكية .ان هذه الفترة مثلت المرحلة الانتقالية من الاقطاع الى الرسمال والبرجوازية حيث ترك فيها حكام اوربا المطلقين مواقع اقامتهم من داخل المدن الى خارجها وشيدوا مستوطنات جديدة ذات نسق معمارى جميل ومنتظم تحيطة الجنينات بفنها الحدائقي وقصر وحدائق فرنسا VERASILE) بفرنسا خير دليل على بداعة وروعة الفن المعمارى فيها اضافة الى اتساع وظهور مدن كبرى مثل لندن (التي زاد عدد سكانها خلال القرن السابع عشر من 200,000 الى 300 نسمة) ومدينة باريس[**] .

[**] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص24-25.

10- مدن القرن التاسع عشر القرن العشرين الميلادي

اطلق على مدن هذه الفترة الزمنية بمدن المرحلة الرأسمالية وذلك بسبب ما شهدته هذه الفترة من استثمارات وتركز للثروات التي خلفها التوسع الصناعي وماتركه من اثار على نمو المدن والتي لايمكن مقارنتها الا مع تلك التي تنعدم فيها ايه ظوابط تخطيطية .فأنشأت او ظهرت مستوطنات جديدة وامتدت على طول شبكات الطرق بشكل عشوائي .

كما ان ظهور القطار كاحد وسائل النقل الحديثة ووصول سكته الى الداخل المدن بعث الفوضى في استعمالات ارض المدينة التي انتشرت فيها المصانع اينما اتفق وتمثلت مميزات هذه المدن في :

- تجمع المبانى حول المصنع مكونه في ذلك احياء سكنية بشروط غير صحية تتمثل في الارتفاع في معدل الكثافة العامة ،سؤ امدادات المياه تعذر نقل النفايات وصعوبة ايجاد الحلول لرفعها اضافه الى الجو الملوث بفضلات المصانع .ان هذه العوامل الموثرة على الصحة العامة قد ادت الى حدوث خسارة مادية وبشرية فادحة .وانتشرت امراض الصناعة وقصر متوسط امد احياء السكان ففي مدينة يورك انخفضت الى 23,8 سنة في الوقت الذي كان فيه متوسط امد الحياة للشعب البريطانى 48 سنة.
- حدوث تغير في تركيب السكان المهني .
- تركز او تجمع الوحدات السكنية في ابنية متعددة الطوابق .وجاء ذلك نتيجة لتطوير تكنولوجيا البناء التي ساعدت فيما بعد على ظهور المدن المزدحمة والكبيرة الحجم .

ضمن هذه الشروط البيئية السيئة في المدينة كان من البديهي ان تظهر عدة اتجاهات او نظريات ترمي الى تحسين شروط الاقامة ، وكانت هذه النظريات تسير في عدة اتجاهات :منها ماكنت تدعوا الى اعادة اعمار المدينة والانفتاح بها نحو الخارج بهدم قلاع واسوار المدن القديمة ومنها ما دعى الى انشاء مدن جديدة وكان كيلو سايت (CAMILLO SITTE) من ابرز المخططين في نهاية القرن التاسع عشر حيث دعى الى النظر الى المدينة على انها وحدة جمالية متكاملة ذات تركيب عضوى وانه لايمكن ان يتم تخطيطها الا من خلال بحث وتحليل مختلف العوامل والوثائق الموثرة والخاصة بنموها وتوسها [*].

[*] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص25-27.

11 – مدن الحدائق

ظهرت فكرة مدن الحدائق في انكلترا باعتبارها مهد الصناعة. وكان اول الكتاب الذين وضعوا الاسس النظرية لها هو ابنزر هاوارد (1850–1928) (EBENZER HOWARD) لاحظ بأن لكل من المدينة والقرية خصائص ذاتية تجذب السكان اليها وعليه ليس من الصحيح القول بان الانسان لا يمكنه اختيار العيش الا في بيئة واحد هي المدينة او القرية بل يمكن تكوين بيئة جديدة تمزج العناصر الايجابية للمدينة والمتمثلة في حيويتها وديناميكية مع هدوء وجمال طبيعة القرية مكونه بذلك مدن الحدائق . وبناء على ذلك اعتمد هوارد في تحقيق نظريتة على الاسس التالية :-

1- الغاء المضاربة في الارض .

2- السيطرة على النمو السكاني من خلال تحديد عدد سكان المدينة بـ300000 نسمة .

3- احداث الموازنة في اداء الوظائف المختلفة بين المدينة والريف ، السكن ، التجارة ، الصناعة اضافة الى احداث هذه الموازنة ايضا بين الوظائف ذات الطابع الروحي ، الاجتماعي ، الترفيهي ، وما شابه .

ان نظرية مدن الحدائق ماهي في الواقع الا محاولة لتحقيق شروط افضل للاقامة والحد من تكدس وتزاحم السكان وكان من البديهي في ظل الاوظاع البيئية السكنية السيئة التي احدثها النمو الصناعي ان يظهر عدة انصار ومؤيدين من الكتاب والمعلمين لهذه النظرية والذين كونوا فيما بعد عدة جمعيات تدعو لانشاء مدن الحدائق حتى تحقق لهم ذلك في عام 1903 بتشيد مدينة لجورث (LETCHWORTH) التي تبعد 50 كيلو متر عن لندن من قبل المخطط ريموند انوين (RAYMOND UNWIN) التي تلتها ذلك مدن اخرى مثل هامبستد (HAMPSTED) عام 1907 ومدينة ولورين (WELWYN) في عام 1920 [*]. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، استخدمت الحكومة البريطانية مفاهيم الاحزمة الخضراء (GREEN BELTS) ومدن الحدائق (GARDEN CITIES) في بناء عدد من المدن الجديدة ، بمعنى السيطرة على النمو الحضري . واغلب هذه المدن احاطت مدينة لندن ، وكانت البعض منها قريبة مثل ادمبرة واسكتلندة، وفي عام 1960 اصبحت المدن التي تحتوي على 20000الى 50000 نسمة غير قابلة وحدها على صد الهجرة الحضرية الى مدينة لندن ، وعدد اخر من المدن انشأت لتحسين احوال المدن الحضرية . وانشأت مدن اخرى كذلك في السويد وهولندا والمانيا وروسيا ومناطق اخرى على نفس الطريقة التي اتبعتها

[*] 7) التخطيط المعاصر للمدن ص 30-31.

انكلترا . وبعد هاورد جاء رفيقه الاسكتلندى بتريك جيدس (PATRIK GEDDES) الذي وضع النظرية المشهورة بكون التخطيط الطبيعي لايستطيع تحسين احوال الحياة الحضرية الا اذا تكاملت مع التخطيط الاجتماعي والاقتصادي ، فتكون متعلقة بالبيئة . وهذا التكامل يجب ان يحدث في مقياس الاقاليم متضمنة المدينة وما يحيطها من مناطق خلفية (HINTERLAND) واصر جيدس على تعقيد وتنوع التخطيط ، حيث يجب ان يكون التخطيط بمقياس كبير أي تخطيط شامل (COMPREHENSIVE PLANNS) حيث ان تطور التخطيط الحضري بدون حلول طبيعة مناسبة كانت ستتاخر كثيرا [*].

12- التطور الحضري في العصر الاسلامي :

كان الحكام العرب مختلفين عن الاباطرة اليونانين والرومان والساسانيين بممانعتهم وضع اساميهم على المدن التي ينشؤها .حيث ان الرسول (ص) كان قد ولد وعاش في مكة المركز التجاري والديني وقضى معظم حياته الباقية في المدينة المنورة وهناك انشا نواة الامة الاسلامية ،ووضع اساس ادارتها .

وكان هناك عدة مراكز حضرية على السواحل ،وفي مناطق خصبة اخرى منتشرة. وسكان هذه المراكز كانوا معتادين على الحياة الادارية والمنظمات الشرعية للمدن الاخرى القريبة حيث كان لهم اتصالات دائمية مع هذه المدن .

ان الفتوحات الاسلامية السريعة مكنت العرب من السيطرة على اراضي تمتد من اسيا الوسطى الى المحيط الاطلسي .وتضمنت امبراطورية العرب مدن مختلفة من الناحية الثقافية ،واسلوب الحياة ،باضافة الى مدن عديدة مختلفة الحجم ،والمنظمات الادارية والسياسية والاجتماعية[**] .وبسيطرتها على كل الامبراطورية الساسانية واغلب المقاطعات البيزنطية فرض العرب السيطرة على النظامين المختلفين الغالبين في الشرق الاوسط .وكل مدينة كانت محاطة بجدار، وكان لها مركز يحتوى على المكاتب الحكومية الرئيسية وعلى الساحة الرئيسية .وكانت الحكومة مسؤوله عن البنايات الحكومية .والنصب التذكارية .وكانت المدينة تدار من خلال واحد او اكثر من الهيئات المنتخبة .ومدن الساسانيين كانت تحتوي على مراكز حضرية ،وكان لها اهمية اقتصادية وادارية فحكم العرب المدن المفتوحة بصلاحية مطلقة ولكنهم تركو المدن المفتوحة اتباع تقاليدها ،ولم يتدخلوا بالدخل الحكومى ولا اخلوا بالامن.

---

[*] 1)Introduction to Urban planning. Page 17-18>

[**] 6)the Islamic city ,the foundation of Baghdad. Page 87-88.

ان استمرار الفتوحات وحماية الحدود بالاضافة الى الحفاظ على الامن والسلام داخل الامبراطورية العربية ادت الى تكوين المواقع والحصن العسكرية في بعض المدن المفتوحة . وبالتنبأ للحاجة الماسة لهذه المواقع العسكرية (GARRISONS) ،وضمن العرب الحق لانشاء المواقع العسكرية بمعاهدات مع بعض المدن المفتوحة* .

وكان للمدينة المنورة مكانتها المميزة ،حيث كانت عاصمة الامة الاسلامية في الفترة التي هاجر اليها النبى محمد (ص) والخلفاء الاربعة اليها .حيث اهتم النبى محمد (ص) بالسلطة القضائية والامن القومي وكانت الحكومة بسيطة جدا .

حيث بقيت التقاليد والعادات القديمة التي لاتؤثر على الدين الاسلامي بدون تغير .

وكانت علاقات المدينة المنورة مع من يجاورها من المدن حميمة مثل مدينة الحجاز التي كانت تضم القبائل العربية التي اعتنقت الديانة الاسلامية منذ زمن الرسول (ص). حيث لعب سكان المدينة المنورة دورا بارزا في اعطاء المدينة المنورة مكانا مميزا حتى بعد ان تجردت من صفتها كعاصمة للامة الاسلامية .

وكانت المدينتان العراقيتان الكوفة والبصرة قد انشئتا بأمر الخليفة عمر بن الخطاب على الحدود بين الصحراء القاحلة والسهول المنبسطة بدون اي حاجز مائي يفصلها عن الصحراء حيث ان كل عشيرة او زمرة (CLAN) عاشوا مع بعض في حي من الاحياء ،وكل فرد من افراد العشيرة كان له الحق في ان يشتري حصص جيرانه من الاملاك .وافراد العشيرة شاركوا بالتساوي في دفع ضريبة الدم في حالة القتل غير المتعمد المقترف من قبل اي فرد من افراد العشيرة .وكان الدخل القومى للمقاطعات المفتوحة من قبل الجيش يوزع بين العرب داخل المقاطعة بالتساوي ، مما ادى الى رفع المتسوى المعاشي والحالة الاقتصادية ، وادت الى هجرة بعض العرب وغير العرب الى هذه المدن المفتوحة بعدد كبير جدا مما ادى الى عدم استيعابها . وبالرغم من ان المدن الاسلامية كانت معرضة للعدوان ، ولكنها تركت بدون خنادق او جدران ، الى زمن الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور ، ولم يهتم الحكام بحفر القنوات لشرب المياه . واصبحت المدن الاسلامية مراكز النشاطات السياسية والاقتصادية والثقافية خلال القرن الاول الهجري . والتاريخ الاسلامي في القرن الاول الهجري هو تاريخ هذه المراكز التي لعبت الدور القيادي في الاحداث السياسية . وكانت ادارة هذه المراكز سهلة ، وتتكون من الحراس ،القضاة ومكاتب الجيش ، وكان هؤلاء مسؤلون عن صرف الرواتب . وسلطتهم القضائية كانت محدودة بتنظيم من العرب ، الذين يختلفون ثقافيا واداريا من باقي

*6)the Islamic city ,the foundation of Baghdad. Page 88.

سكنه هذه المراكز التي تسمى امسار(AMSAR)* . وتشترك المدن العربية الاسلامية ببعض الصفات العامة التي تعتبر انعكاسا للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، للدور الذي عاشت فيه . حيث ان للنظام الاجتماعي القبلي تأثير كبير في تشكيل بنية المدينة العربية فالبدوي لايعرف الولاء الا لعائلته وعشيرتة ، وقد ظهر انعكاس هذه الروح العشائرية في احياء المدن حيث كانت كل قبيلة تحتل حيا خاصة بها من المدينة . وبهذه الطريقة اصبح كل حي او محلة وحدة حضرية مستقلة او شبه مدينة . وان لكل حي مبانية العامة وسوره وابوابه ومقبرته ومساجده . وكانت العلاقات بين تلك الاحياء وخاصة في الاوقات غير الاعتيادية ضعيفة ولايربط بينها سوى مسجد الجمعة الرئيسي ويضمها السور الخارجي الذي يطوق المدينة .

لقد اعتاد المسلمون ان يبدأوا ببناء المسجد في وسط المدينة بعد الاستقرار في المناطق المفتوحة . يقع المسجد قرب السوق ، ولا تزال اثار المساجد والاسواق القديمة باقية في بعض المدن الاسلامية . يؤدي المسجد الاسلامي وظائف متعددة حيث انه ليس مكانا للعبادة والصلاة فقط وانما كان مركزا سياسيا واجتماعيا وحضاريا . كان النبي محمد صلى الله علية وسلم يلتقي بسفراءه ورجاله في المسجد . بالاضافة الى ان المسجد منذ بداية الاسلام كان مركزا حضريا مهما لدراسة القران ، وبعضها مثل مساجد الكوفة والبصرة والفسطاط اصبح مركز مهما للحركة الفكرية . وكثير ما كانت المحاكم الشريعية تعقد في المسجد، والسوق هو المركز التجاري الرئيسي في المدينة الاسلامية حيث يلتقي به تجار المفرد ذو الحرف والزبائن، وبه تعقد المعاملات التجارية ومن ابرز صفات الاسواق العربية انها تمتاز بالتكتل اذا ان اصحاب كل حرفة او باعة نوع معين من البضائعة يميلون الى التجمع في منطقة واحدة . ويمكن تقسيم السوق الى عدة اسواق ثانوية .فهناك سوق البزازين والاخر للصاغة والقصابين وباعة الكتب والاحذية وهكذا ان من جملة الاسباب ظاهرة التخصص هذه هو تاثير النقابات المهنية . كان على اصحاب المهن المتشابهه ان ينتمو الى نقابة خاصة بهم لتظيم نشاطاتهم .هذا التظيم النقابي يحتم تقارب ذي المهن الواحدة وتكتلهم لسهولة الاتصال ببعضهم لغرض جمع الضرائب منهم في وقت واحد، ومن الجدير بالذكر ان هذه الظاهرة طبيعية ، يحث يميل اصحاب المصالح المشتركة الى التقارب والاستفادة من بعضهم في مجال البيع والمنافسة فيما بينهم لقد ثبته حديثا صحت هذا المبدء من الناحية الاقتصادية واصبح اساسا لتخطيط الاسواق والنماطق التجارية . ويشاهد في كثير من المدن العربية ان هناك تجمع واضح للبنايات العامة

*6)the Islamic city ,the foundation of Baghdad. Page 89-90.

والفنادق بالقرب من المركز الديني .ويعتبر المركز الديني الذي قد يكون ضريحا لاحد رجال الدين او احد الائمه بؤرة المدينة التي تتوحد اليها انظار السكان المحليين والزائرين ويساهم في نشاطها الاقتصادي*، ويرجع هذا الازدهار الى فترة الانتعاش والاستقرار الذي شهدتها المنطقة والى عوامل ترتبط اساسا الى الحضارة الاسلامية التي ادت الى وجود ترابط المدن العربية في الخصائص والمميزات فالجامع مع الساحة ، الميدان ، الاسوق ، الفناء الداخلي ، هي الملامح الاصلية للمدينة العربية برغم من تباعد الموقع الجغرافي للواحدة عن الاخرى أي الملامح الاصلية قد اكسبت المدينة العربية شخصية خاصة مميزة لها اينما كانت وبقي المسجد المظهر المعماري السائد فيها والمسيطر على فضائها والذي تتجمع الاحياء السكنية التجارية واحياء الصناع ذات الدروب والازقة المتلوية . ان وحدة الترابط هذه في تكوين المدينة دلت ايضا ان العرب والمسلمون قد انشأو مدنا مختصصة في اداء نوع معين من الوظائف نذكر منها على سبيل المثال المدن الدينية كالنجف وكربلاء ، مراكش الرباط ..... الخ او المدن العسكرية كالبصرة ، الكوفة ، الفسطاط والقيروان ..... الخ او المدن التي تؤدي الى عدد وظائف مشتركة في ان واحد كالوظيفة السياسية والادارية والعسكرية مثل بغداد وسامراء ومكناس في مراكش . الازدهار الذي عاشته المدن العربية والاسلامية سرعان ماتم احتواءه من قبل الغزاة والمحتلين فيما بعد حين تعرضت هذه المدن الى السلب والنهب وتدمير المعالم الحضارية لها وبالخصوص آبان الاحتلال المغولي والعثماني للاراضي العربية في الفترة مابين 1400 و1800 ميلادي** . اما المناطق السكنية فتحيا بالسوق عادة وترتبط به بواسطة الشوارع الرئيسية التي تكون اوسع من الازقة الملتوية داخل المنطقة . وهناك بعض العوامل التي جعلت الشوارع ضيقة وملتوية منها :

1. كون بعض المدن غير مخططة بصورة علمية ونمت بطريقة غير نظامية .
2. ضعف البلديات التي تشرف على تنظيم واستعمال الاراضي داخل المدينة .
3. الروابط القوية بين سكان الحي الواحد وانتمائهم الى عشيرة او قبلية واحدة برغبة كل منهم ان يسكن بالقرب من بعضهم .
4. ان ضبط الشوارع يعطي للمدينة شكلا محتشما يساعد السكان الدفاع عن انفسهم ضد الغرات الخارجية .
5. ان تلك الشوارع كانت تستعمل كمسالك للانسان وكاممرات للحيوانات .

* 8)جغرافية المدن ص21-22.
** 7) التخطيط المعاصر للمدن ص21-22

6. يعتقد ان النبي (ص) جعل الحد الادنى لعرض الشارع 10 اقدام بحيث يمكن لحيوانين محملين للمرور بوقت واحد وقد طبق الخليفة عمر (رضي الله عنه) هذا المقياس على الشوارع البصرة والكوفة كما استعمل في بغداد ايضا بينما جعل عرض الشارع حوالي 30 قدم وكذلك حدوث مسافة قدرها 100 قدم للوحدات السكنية بين الشارع والنهاية الاخرى .

7. يمكن القول بان تلك الشوارع جعلت ضيقه لتكون محمية من اشعة الشمس المحرقة في المناطق الصحراوية مما يؤيد ذلك هو الميل لتخطية بعض اجزاء تلك الشوارع عن قصد بواسطة تلاقي شرفات الدور المقابلة كما نشاهد هذه الظاهرة في المناطق السكنية القديمة النجف والكاظمية وكربلاء والبصرة .

اما ظاهرة الازقة غير السالكة والمقفلة يمكن ان تغري الى سهولة حصر الغزاة اذا ماتعرضت المدينة الى هجمات القبائل البدوية او الاعداء الخارجين وربما يصدق هذا التعليل على صفة جعل الشوارع ملتوية ومتعرجة لنفس السبب .

ليست كل المدن العربية والاسلامية ينقصها التخطيط لكن يعتقد بان المدن التي نمت بصورة طبيعية كانت اكثر من التي بنيت على اساس مخطط . تغلب الخطة الدائرية على المدن الاسلامية ويرجع السبب الى ان شكل الدائري يتماشى مع الافكار الاسلامية الدينية ومن المدن الدائرية الخطة الكوفة والبصرة وبغداد ومدينة الحضر . كما ان الشكل الدائري يساعد على سهولة الدفاع عن المدينة ويجعل المركز على ابعاد متساوية بالنسبة لجميع الابراج المراقبة على سور المدينة ومن الجدير بالذكر ان الشكل الدائري كان شائع الاستعمال في المدن الايرانية القديمة اما المغرب ومصر فقط استعملت الخطة المربعة في تخطيط بعض المدن، ومن المدن المخططة هي المدن المراكشية التي وجدت خلال القرن الرابع عشر، والقاهرة القديمة التي بناها الفاطميون ويعتقد بان ذلك كان نتيجة التاثير الاغريقي الهيلاني .

ومن الغريب ان نجد مدن جزيرة العرب مثل جدة القديمة ومكة المكرمة يقل فيها وجود الازقة غير السالكة كما تتخلها شوارع مستقيمة تتقاطع بزوايا قائمة ويدعى بعض الباحثين بأن ذلك يعود الى ان تلك المدن تاثرت بالعالم الخارجي وخاصة باقطار المحيط الهندى ولذلك فقد غلبت عليها تاثيرات ما قبل الحضارة الاسلامية. اما بلنهول فانه يرجع هذه الظاهرة الى سبب بسيط وهو ان سهولة الحركة داخل هذه المدن لاحتوائها على عدد كبير من الناس ،خاصة خلال المواسم الدينية،و التجارة في الاوقات الطبيعية تتطالب استقامة الشوارع وجعلها مفتوحة النهايات*. وكان لمدينة بغداد دور كبير في تاريخ الحضارة الاسلامية .حيث ان في عملية

* 8)جغرافية المدن ص22-24.

انشاء مدينة بغداد ،استهدف الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور تامين قاعدة لجيش الدولة العباسية ومركزا للادارة .

ولهذا فضلا عن مكان خصب ،وموقعة يضمن الاتصالات بصورة جيدة باجزاء الاخرى من الدولة العباسية .وحدد موقع مدينة بغداد بعد دراسات عديدة حيث انها لم تكن بعيدة عن العواصم القديمة مثل اوبيس عاصمة الاكديين (opis) وسيليسيا (SELEUCIA) عاصمة السيليسين والبارثيانين (PARTHIANS)، وتيسبون عاصمة الساسانين ،وحدد موقعها على نهر دجلة في ارض خصبة جدا ،وكانت هناك عدد من القنواة النافذة ،لخدمة اغراض الرى و الدفاع .وكان هناك عدد من اللاديار والتنظمات المسيحية ،وكانت الارض رخيصة ومستوية ،بدون محددات طبيعية او قانونية لتمددها. ولم يسم المدينة الجديدة او اي من مبانيها باسمه .

وانتقل ابو جعفر المنصور الى عاصمتة الجديدة بغداد بعد ان قمع ثلاث ثورات مهدده له .وحيث افتقدت المديته الدائرية بغداد المنشأت المسرفة او اماكن الاستحمام ، مثل المسارح ،والملاعب الرياضية ،والحدائق ،والتمائيل ،والنصب التذكارية.

ولم تكن مناطق سباق الخيول موجودة الا في زمن المهدى اي بعد ثلاثين سنة من انشاء مدينة بغداد .ولم تكن قنواة المياه والخنادق موجودة في المخططات الاولية حيث اضيفت بعد عدة سنوات من انشاء مدينة بغداد .وبذلك كانت مدينة الخليفة المنصور بداية عهد انشائها تشبه المدن العربية الاخرى المشهورة بالامسار (AMASR)[**] .

وللحصول على حماية جيدة فكر الخليفة المنصور بتحصين مدينة بغداد جيدا .ليس فقط بالقنواة الطبيعية الموجودة بها .ولكن ايضا بخندق عريض وعميق ،وجدران ضخمة مضاعفة وكذلك حصن المدن الاخرى مثل البصرة والكوفة ،بخنادق وجدران لاول مرة .ومدينة بغداد بشكلها الدائري ،وكانت مساحتها حوالى 1000 ذراع بمهنى ان قطرها600 متر .وهذا مما جعلها قلعة شبيهه بكوهاندز (QUHANDIZ) الشكل الفارسى.وكان الشكل الدائرى الاكثر مناسبة لاغراض الدفاع . وكان قصر الخليفة المنصور في مركز المدينة وكذلك الجامع الرئسي ،والمكاتب الحكومية كما كانت في المدن العربية القديمة .وكان القصر والجامع من اهم البنايات في المدينة الدائرية بغداد .ويقول اليعقوبي ان الخليفة المنصور منح اعوانه وقادته اراض داخل المدينة الدائرية ،ومنح اخرين اراض قرب الجدران او خارجها ومنح الجنود اراض حول المدينة حيث بلغ عدد المقاتلين الى 20000 مقاتل وكانت تشير بعض المصادر الى كون الجيش العباسى 30000 مقاتل .

[**]6)the Islamic city ,the foundation of Baghdad. Page 92.

وكان للمدينة اربعة ابواب رئيسية كل منها تحتوي على قائد ومعه الف من الجنود وهؤلاء كانوا المجموع الكلي تقريبا لسكان المدينة الدائرية بغداد ،التي كانت تحتوي على 49 شارعا .وقد تحدد نمو المدينة بالخندق و الجدران وادى ذلك الى ان تتجه المدينة للتمدد خارج الجدار بعد ان تزايد عدد السكان والمهجرين الجدد الى المدينة.

وسكان مدينة بغداد كانوا مختلفي الاصل ،اندمج مع بعض باللغة العربية المشتركة والدين الاسلامي ،وكان الجيش والموظفين يكونون العدد الاكبر من سكان المدينة ببغداد كما هو الحال في المدن القديمة ،ولكن سكان هذه المدن القديمة كانوا كلهم من العرب ولم تكن علاقتهم مع قاداتهم وحكومتهم جيدة في كل الاحيان ،على العكس من سكان مدينة بغداد حيث لم يكونوا كلهم من العرب وكانت علاقتهم واخلاصهم لخليفتهم جيدة جدا .حيث خلق العرب توازنا وتقدما في تكوين حضارة مختلفة الاصل (COSNOPOLITAL) التي فيها تكاملت الاعداد الكبيرة والمختلفة من الانواع الثقافية التي كانت موجودة في الشرق الاوسط في ذلك الحين[*].

حيث اصبحت بغداد المركز الرئيسي للنشاطات الاقتصادية وادى الى انتشار السلع بين السكان الى رفع الحالة المعيشية ،بدون ان تؤدي الى رفع طبقة معينة من الناس الاغنياء .

وتم انشاء حوانيت صغيرة على الشوارع الرئيسية للمدينة الدائرية ،وانشاء الاسواق في مركز كل حي لسد حاجيات سكنة الحي .

وسبب ارتفاع المستوى المعاشي ،ومستوى الشراء والطلب للعمال والفنانين والحرفين لسد حاجيات سكان المدينة الى جذب عدد كبير من المهاجرين الذين جاءوا الى المدينة باسرع وقت ، واخلوا بالخطط التي وضعها الخليفة وشوهوا الحياة الامنة التي كان يعيشها سكان بغداد .فادى الخليفة الى نقلة الى جانب الكرخ في الجزء الجنوبي الغربي من بغداد ، واصبح الكرخ المركز الاول للاسواق ادى الى تمدد مدينة بغداد ككل وتوسعها ،حتى بلغت اعظم مدينة في الدولة العباسية ،وكذلك اكبر مدينة في العالم في ذلك الزمن[**].

13-الاستنتاجات

نستنتج مما سبق ان المدينة تكونت في العصر القديم من تجمع القرى والناس لاسباب عسكرية وسياسية ،واقتصادية ،واجتماعية،ثقافية وغيرها حيث كانت المدن الاولى محاطة

[*]6)the Islamic city ,the foundation of Baghdad. Page 9
[**]6)the Islamic city ,the foundation of Baghdad. Page 99-101.

بجدران وخنادق لاغراض دفاعية وللسيطرة على المدينة حيث اثر على التطور الحضري للمدن حالتان:

1- اكتشاف البارود ادى الى هدم الجدران وتغير اشكال المدن.

2- الثورة الصناعية وما احدثته من تغير في كافة النواحي والتطوير التكنولوجي هذه ادت الى هجرة ساكني القرى والارياف الى المدن طلبا للعمل ،فأدت الى حدوث اختناق ،و ازدحام في المدن ،وظهرت مشاكل عديدة من حيث السكن والتنقل ،وساءت الاحوال الصحية والمعيشية للسكان .فظهر عدد من المفكرين والمخططين والاجتماعيين الذين فكروا بحل هذه المشاكل بأنشاء مدن جديدة تربط بين الريف والمدينة بحيث تأخذ ايجابيات كل منهم وتصبها في المدينة الجديدة وهذه سميت بمدن الحدائق .

وايضا كان للمدن اثر كبير في التطور الحضري في ذلك الوقت استعملت التصاميم العربية فيما بعد من قبل الدول والحضارات الاوربية وكانت تتميز المدن العربية بالشوارع الملتوية والضيقة ومن اشهر المدن العربية التي وصلت الى عظمتها عى المدينة الدائرية بغداد التي بناها الخليفة العباسي ابو جعفر المنصوروجعلها عاصمة الامبراطورية العباسية.

المصادر:

1)INTRODUCTION TO URBAN PLANNING.,EDITED BY ANTHONY J. CATARESE,JAMES C. SNYDER. PRINTED IN USA 1979 IN MCCRAW HILL INC.

2)THE CITY IN THE ANCIENT WORLD. BY MASON HAMMOND – HARVERD UNIVERSITY ,PRESS ,CAMBRIDGE ,MASSACHUSETTS 1972.

3)URBAN & REGIONAL PLANNING ,J. BRIAN MCLOUGHLW,PRINTED IN G.B. WESTERN PRINTING SERVICES LTD., BRISTOL 1969.

4)THE CITY IN HISTORY ,LEWIS MUMFORD ,MAFE AND PRINTED IN GREAT BRITIN COX &WYMAN LTD., LONDON 1961.

5)THE CHANGING MIDDLE EASTERN CITY, EDITED BY G.H. BLAKE & R.I. LAWLESS ,PUBLISHED IN USA 1980 ,BY HARPER & ROW PUBLISHERS ,INC.

6)PARPER ON ISLAMIC HISTORY ,THE ISLAMIC CITY ,THE FOUNDATION OF BAGHDAD ,SALEH AHMED ALI ,PRINTED BY ROBERT MACLEHOSE & CO. LTD., GLASGOW 1970.

7) الموسوعة الصغيرة ،التخطيط المعاصر للمدن ،د.باسم المعلم.

8) جغرافية المدن ،د.عبدالرزاق عباس حسين، بغداد مطبعة اسعد 1977.